

أسوة:
الفقادة
والمقاومة

أسودى فقاوت و مقاوت



الإنسان

بين حضارة الذكر وحضارة النسيان

المؤتمر الدولي لتكريم شخصية سماحة آية الله المجاهد الشيخ عيسى احمد قاسم (دام عزه)

همايش بين المللى نكوداشت حضرت آيت الله شيخ عيسى احمد قاسم (دام عزه)

جائزة المصطفى ﷺ العالمية : 4 | :
چهارمين دوره ی جايزه ی جهانی المصطفى ﷺ

دائر الفقير للقائم
مخطو و كثر آثار آية الله فقايت

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٥م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

[مدخل: هادفية الخلق والحياة]	٢٧
١- أمر عباده تخييراً:	٢٧
٢- أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً:	٢٩
٣- كلف يسيراً ولم يكلف عسيراً:	٣٣
٤- وأعطى على القليل كثيراً:	٣٦
٥- ولم يُعصَ مغلوباً:	٣٨
٦- ولم يُطعَ مكرهاً:	٤٠
٧- « ولم يرسل الأنبياء لعباً »	٤٣
نظرة أساس: [هادفية الخلق والحياة]	٤٣
السؤال الأساس: الكون، الحياة، الإنسان، الرسالات، مبنية على	
الجد أو اللعب؟	٤٤
النظرة العلمية:	٤٤
النظرة الفلسفية:	٤٨
النصوص:	٤٩

أرضيتان وحياتان:	٥٣
جدُّ لا لعب:	٥٦
أمثلة عابرة:	٥٧
مفارقةٌ مذهشة:	٦٠
الفصل الأول:	٦٢
[حضارتان : حضارة الذكر وحضارة النسيان]	٦٢
[أنواعٌ من الحقائق]	٦٤
[حقائق كبرى، وحقائق صغرى]	٦٤
[حقائق بعيدة، وحقائق قريبة]	٦٥
[حقائق دائمة وحقائق منقطعة]	٦٥
[حقائق حاضرة، وحقائق غائبة حاضرة]	٦٦
[تنبيه!]	٦٧
[بين حضارتين]	٦٨
حقائق في المقدمة:	٧٠
حقائق متميزة:	٧٢
حضارة الذكر:	٧٣
١- حضارة الذكر ماذا تعني؟	٧٣



[المقصود من حضارة الذكر].....	٧٤
٢- صناعة رحمانية:.....	٧٥
٣- لماذا الذكر؟.....	٧٥
٤- نصوص عامة:.....	٧٦
٥- نصوص خاصة:.....	٧٩
أ- الله ﷻ:.....	٧٩
ب- نعم الله:.....	٨١
ج- الكتب السماوية:.....	٨٣
د- [الآخرة]:.....	٨٦
هـ - [الإنسان]:.....	٨٧
و- سنن التاريخ:.....	٨٩
ز- رموز الخير والشر:.....	٩٢
ح- الدنيا:.....	٩٥
[المعنى الأول].....	٩٦
[المعنى الثاني].....	٩٦
ط- [الشيطان]:.....	٩٩
من مراتب الذكر:.....	١٠٢

١٠٥.....	حضارة النسيان:
١٠٨.....	صناعة شيطانية:
١٠٨.....	[نصوص عامة]:
١١١.....	[نصوص خاصة]:
١١٣.....	[مما تستهدف جبهة الشر أن تنسيه الإنسان] :
١-.....	الله ﷻ :
١١٣.....	
١١٥.....	ب- العهود والمواثيق الإلهية:
١١٩.....	ج - [اليوم الآخر]:
١٢٦.....	الفصل الثاني :
١٢٦.....	عوامل ، تحديات ، تأديبات.
١٢٦.....	عوامل ذكر وعوامل نسيان:
١٣١.....	موارد للتحدي:
١٣٦.....	آيات وتأديبات:
١٤٢.....	[الفصل الثالث :
	(الإنسان) بين حضارتين .. حضارة الطين وحضارة الإنسان]
١٤٢.....	
١٤٢.....	حضارتان: حضارة الطين وحضارة الإنسان.



- أ- حضارة الطين: ١٤٣
- ب- حضارة الإنسان: ١٤٤
- حول الإنسان: ١٤٧**
- [أولاً] الإنسان هدفاً: ١٥١**
- [ثانياً] الإنسان موقعاً: ١٥٦**
- أ- في التصوير القرآني: ١٥٦
- ب- في النظرة المادية: ١٦١
- [التصوير الأول] ١٦١
- [التصوير الثاني] ١٦٢
- [ثالثاً] الإنسان دوراً: ١٦٥**
- أ- في حضارة الإنسان: ١٦٥
- ما هو هذا الدور؟ ١٦٧
- من هذا الدور إقامة القسط ١٦٧
- [العمل الصالح] ١٧٠
- من هو الإنسان الرابع؟ ١٧١
- [التواصي] ١٧١
- ب - في تصوير حضارة الطين: ١٧٣

[من خطابات الرسل لأقوام الحضارة الماديّة] ١٧٤.....

١- هود لعاد:..... ١٧٤.....

٢- صالح لثمود:..... ١٧٦.....

٣- لوط لقومه:..... ١٧٨.....

٤- شعيب لأصحاب الأيكة:..... ١٧٨.....

الإنسان مسؤوليّة: ١٨٠.....

أ- في حضارة الإنسان..... ١٨٠.....

ب- في حضارة الطين:..... ١٨٥.....

[الفصل الرابع : ١٩٠.....]**الحضارتان والإنسان في قوته وضعفه. [..... ١٩٠.....]**

الحضارتان والقوة:..... ١٩٠.....

الإنسان في قوته وضعفه:..... ١٩١.....

الإنسان بين القوة والضعف:..... ١٩٦.....

الإنسان ذاتاً.... وخلقته:..... ١٩٦.....

أ. الإنسان ذاتاً:..... ١٩٦.....

ب. الإنسان خلقته:..... ١٩٧.....



١. على المستوى العام: ١٩٧.....
٢. على المستوى النفسي: ١٩٨.....
٣. تحديات ومتاعب: ١٩٩.....
- كيف يحمي الإنسان نفسه من الهزيمة؟ ٢٠٠.....
- الإنسان قويٌّ في حضارة الإنسان؛ حضارة الإيمان والإسلام أم في حضارة الطين؟ ٢٠٢.....
- الحضارتان وصناعة الإنسان: ٢٠٣.....
- [الإنسان من صناعة حضارة الإنسان في ضعفه وقوته] ٢٠٣....
- الإسلام وصناعة القوة (قوة الداخل): ٢٠٦.....
١. رؤية للقوة: ٢٠٦.....
٢. دروس للقوة: ٢٠٧.....
٣. تشريعات للقوة: ٢٠٨.....
- [كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام]: ٢١١.....
١. كلمات شارحة: ٢١٢.....
- وقور عند الهزاهر: ٢١٢.....
- ثبوتٌ عند المكاره: ٢١٢.....
- صَبُورٌ عند البلاء: ٢١٣.....

- شَكُورٌ عند الرِّخاء: ٢١٣
- قانع بما رزقه الله: ٢١٤
- لا يظلم الأعداء: ٢١٤
- ولا يتحامل على الأصدقاء: ٢١٤
- الناس منه في راحة، ونفسه منه في تعب: ٢١٥
٢. هذه هي الشخصية القويّة: ٢١٥
٣. كيف يصنع الإيمان القوة؟ ٢١٧
٤. التحصين الخارجي والتحصين الداخلي: ٢١٨
- [الإنسان من صناعة حضارة الطين في ضعفه وقوته] ٢٢٠
- [خسائر إنسان الحضارة المادية]: ٢٢١
- [الفصل الخامس: ٢٣١]**
- الحضارتان والعلاقات. [..... ٢٣١]**
- [أولاً: الحضارتان والأوضاع الخارجية: ٢٣١]**
- [حركة القوة الخارجية عند الحضارتين] ٢٣٩
١. قوة مع عدل وقوة مع ظلم: ٢٣٩
٢. قوة هادفة، وقوة هدف: ٢٤٠
٣. حضارة تؤسس لستقوتها: ٢٤٠



[ثانياً:] الحضارتان والعلاقات الإنسانية:.....	٢٤٢
[أ-] حضارة الإنسان والإيمان:.....	٢٤٣
الأساس الفلسفي:.....	٢٤٤
الأصول الأولى:.....	٢٤٤
١. خالق واحد:.....	٢٤٤
٢. الأصل الإنساني:.....	٢٤٥
٣. هدف واحد:.....	٢٤٥
٤. منهج أخلاقي:.....	٢٤٦
٥. ميزانٌ تقييميٌ عالمي:.....	٢٤٦
المنهج والتربية:.....	٢٥٠
اعتراضان:.....	٢٥٥
[أ- حضارة الإيمان حضارة تقسيمٍ وصراع!].....	٢٥٦
[ب- حضارة الإيمان غير قادرة على تحقيق علاقات إنسانية رائعة].....	٢٥٨
ب- حضارة الطين والعلاقات الإنسانية:.....	٢٦٠
[١- على مستوى الرؤية الذاتية].....	٢٦٠
[٢- على مستوى الرؤية القرآنية].....	٢٦٦



[الخاتمة] : نتائج. ٢٧٢

أ- من نتائج النسيان: ٢٧٢

ب. [من نتائج الذكر]. ٢٧٧

الذكر والفكر: ٢٩٤

مصادر التحقيق : ٢٩٧

كيف ننفق الحياة؟

الكون، الحياة، الإنسان، الرسائل، مبنية على الجد أو اللعب؟
أنت الإنسان العاقل كيف تتخذ حياتك؟ أنتخذها سرفاً؟
أنتخذها لعباً؟ أنتخذها عبثاً وهزوا؟

هذا الإنسان ما حقيقته؟ ما قيمة هذا الإنسان؟!
ما هو ميزان تقدم حقيقة على غيرها من الحقائق في اهتمام
الإنسان، في عنايته، في تذكره، في تعامله؟

من هو الإنسان الرابع؟
النفس من أين تستمد شعورها بالعظمة، بالعزة بالكرامة
بالقيمة؟

الشیطان كيف يريك نفسك؟
كيف يحمي الإنسان نفسه من الهزيمة؟
كيف يصنع الإيمان القوة؟

عَطَشَى هِي الرُّوحُ الْمُتَسَائِلَةُ إِلَى نَمِيرٍ عَذْبٍ وَمَنْهَلٍ صَافٍ يَطْفِئُ
ظَمَأَهَا وَيُرْوِي غَلِيلَهَا، فَأَيُّ نَبْعٍ مُجِيبٍ أَصْفَى مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
الْمَجِيدِ؟! وَأَيُّ مَصْدَرٍ مُلَبٍّ أَنْقَى مِنْ كَلَامِ الْحَبِيبِ الْمَصْطَفَى ﷺ
وَعَتَرْتَهُ ﷺ؟! فَكَيْفَ بَهَذَا الزُّلَالِ إِذَا قَدَّمْتَهُ بِكُلِّ عِرْفَانٍ وَبَصِيرَةٍ
كَفُّ كُفٍّ (عيسى) الَّتِي تَمْسَحُ عَلَى الْقُلُوبِ بَضَائِهَا النَّقْيَ، لِتَنْفِضَ
عَنِ الْعُقُولِ صَدَأَ الْغَفْلَةِ.



نقف لنجيب على تساؤلاتنا مع منبرٍ متحركٍ فقهياً ومعرفةً ووعياً وبصيرةً، يتجلى في الجمعاتِ منارةً إسلاميةً بأسقة، وهو منبر الجمعة لآية الله المجاهد الشيخ عيسى أحمد قاسم رحمته الله.

خطبتان يلقيهما سماحة الشيخ، يؤصل عبر الأولى فقهياً وحكمةً مهما حلكت الظرف وتضيقت الأزمات، ويعالج عبر الثانية المضلات المعاصرة العالمية والمحلية، الاجتماعية والفكرية، ويقف من الأحداث موقف الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، المربي الناصح، الصلب العطوف، الأصل المعاصر.

طريقة سماعته:

دأب سماعته على إلقاء خطب الجمعة قراءةً عما كتبه بيده المباركة، وتكون الخطبة العبادية (الأولى) من خطبتي الجمعة في كثير من الأحيان على شكل مواضيع وبحوث متسلسلة عبر الأسابيع. استخرجنا منها هذه السلسلة تحت عنوان:

(حضارة الذكر وحضارة النسيان)

عملنا في هذا الكتاب

١. اقتصرنا في هذا الكتاب على عرض كلام سماحة الشيخ - كما هو - قدر الإمكان حفاظاً على قيمة نص كلمات سماحة الشيخ.
٢. تم وضع ما ليس من كلام سماحته بين معقوفتين [] حتى ما كان من باب العنونة والتبويب أو الهامش.
٣. لم نجمع كل الخطب والمحاضرات والمقالات «المكتوبة» لسماحة الشيخ حول موضوع الكتاب، بل اقتصرنا على الاتيان بخطب الجمعة التي وردت متسلسلة في هذا الموضوع.
٤. بوبنا الخطب في مدخل وفصول خمسة وخاتمة.
٥. وضعنا عناوين عامة وجانبية ضمن الفصول بما نراه مناسباً ووضعناه بين معقوفتين [] إلا ما كان من كلام الشيخ نفسه.
٦. تقيدنا بالتسلسل الزمني لإلقاء الخطب قدر الإمكان إلا أننا قمنا بالتقديم والتأخير بين بعض الخطب حيث اقتضت ذلك رعاية الترتيب وإيراد سماحته بعض الخطب التي يظهر منها الاستدراك على ما تقدمها من خطب، وقد تمت الإشارة الى ذلك في الهوامش.
٧. اضطررنا لحذف وإضافة بعض أدوات العطف وعلامات الترقيم بما ينسجم مع موقع الكلام.
٨. تم أخذ النص من خطب الجمعة ١٤٨-١٧٧. أي الخطب



الملقاة في الفترة :

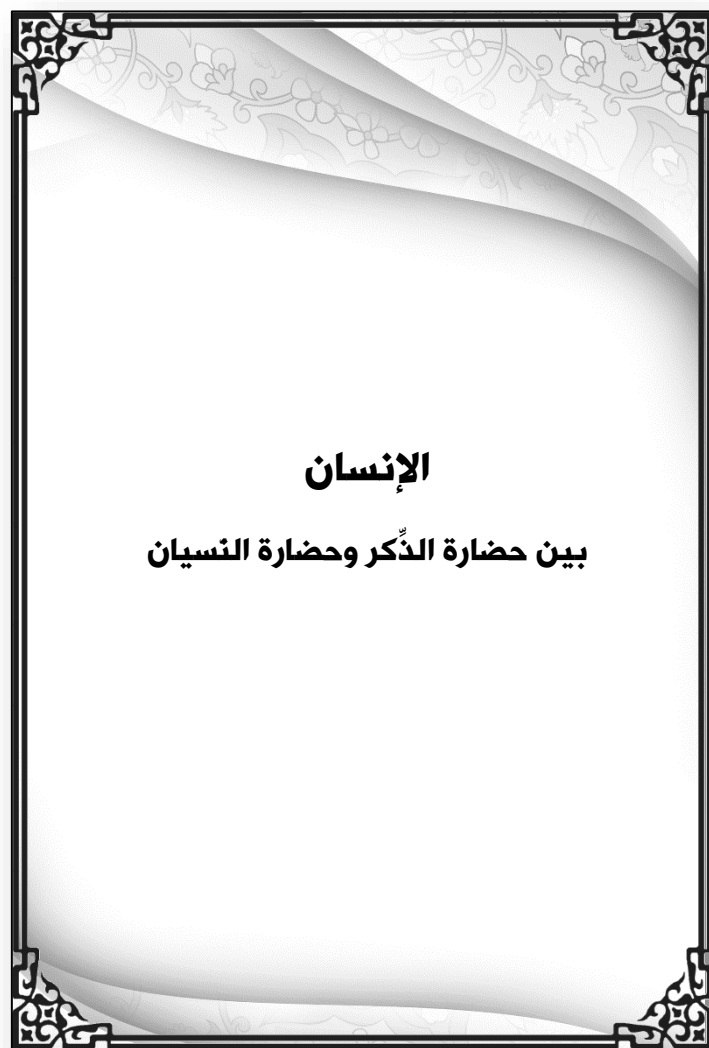
من ١٣ محرم ١٤٢٥ هـ - ٥ مارس ٢٠٠٤ م

حتى ٢٠ شوال ١٤٢٥ هـ - ٣ ديسمبر ٢٠٠٤ م

٩. تم أخذ النص الأصلي للخطب من موقع

almuqawim.net المعني بنشر خطب ومحاضرات سماحة

الشيخ وبياناته ونشاطاته.



الإنسان

بين حضارة الذِّكر وحضارة النسيان

الحمد لله الذي لا يُغلق باب رحمته، ولا تخبو أنوار هدايته، ولا يهتك حجاب عزّته، ولا دنو لأحد من عظّمته. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له النعم والآلاء، والعظمة والكبرياء. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وبارك عليهم جميعاً وسلّم تسليماً كثيراً.

أوصيكم عباد الله ونفسي المخادعة لي بتقوى الله، وبذل العمر في سبيله، وصرف الطاقة في طاعته، وصيانة النفس من سقوطها بمعصيته، ففي كل طاعة لله كمال، وفي كل معصية له نقص وخسار. وما أجدى امرءاً أن يكثر ما في يده، ويضمّر الخير في نفسه، وما ضرّه أن يقلّ ما في اليد من أجل أن يعظم خير النفس.

ولو انبنى وجود ضخم في الخارج من زراعة وصناعة وغيرهما على يد الإنسان وهو هادمٌ لنفسه لكان باخساً لها بخساً عظيماً، وما هو بربح لأحد أن يقيم عمارات على الأرض، ويهدّ عمارة الخير في داخله. ولو ملأنا الدنيا كلها مصابيح منارة، وأطفأنا مصابيح النفوس لكان خيرنا قليلاً، وشرنا كثيراً، وظلمنا عظيماً.

اللهم صلّ على محمد وآل محمد، واغفر لنا ولإخواننا المؤمنين والمؤمنات أجمعين، ونور عقولنا بمعرفتك، وامر قلوبنا بذكرك،

وأُسعد أرواحنا بأنسك، ولا تُشقنا بهجرانك، ولا تحرمنا محبتك، ولا
تصرف عنا وجهك الكريم ياربَّ يا منَّان يا حنَّان، يا حميد يا مجيد.

أما بعد أيها المؤمنون والمؤمنات الأعزاء فإلى الحديث المتتابع في
موضوع :

"حضارة الذكر وحضارة النسيان" ^(١)

(١) من صدر خطبة الجمعة (١٥٤) ٢٤ ربيع الأول ١٤٢٥هـ - ١٤ مايو ٢٠٠٤م.

المدخل

هادفية الخلق والحياة

- وقفة تأمل.
- نظرة أساس: هادفية الخلق والحياة.
- أرضيتان وحياتان.
- جدُّ لا لعب.
- مفارقة مدهشة.

(١)

[مدخل: هادفية الخلق والحياة]

جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً،
وَنَهَاهُمْ تَحْذِيراً، وَكَلَّفَ يَسِيراً، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً وَأَعْطَى عَلَى
الْقَلِيلِ كَثِيراً وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً وَلَمْ يُطَعْ مُكْرَهاً وَلَمْ يُرْسَلِ الْأَنْبِيَاءُ
لَعِباً» (٢)

ولنقف مع هذه الكلمات وفكرها النير وتوجيهها العقلي والإسلامي
الدقيق.

١- أمر عباده تخييراً:

من الأوامر ما هو مستحب على المستوى التشريعي، ومنها ما هو
واجب، ومن النواهي على المستوى نفسه ما يعني الكراهة، ومنها ما

(١) خطبة الجمعة رقم (١٤٤) ١٣ محرم ١٤٢٥ هـ - ٥ مارس ٢٠٠٤م

(٢) نهج البلاغة، الشريف الرضي، صبحي الصالح، ص ٤٨١.

يعني التحريم. أما من ناحية ما أعطي الإنسان من قدرة على الفعل وعدمه، وعلى أن يقرر الاستجابة لله وعدمها، وعلى أن يطيع أو يعصي، فهذه الأوامر حتى ما كان إلزامياً منها على المستوى التشريعي يكون تخييراً.

أنت ملزم شرعاً بأن تفعل إذا كان الأمر واجباً، لكن من حيث قدرتك على الفعل وعدمه، ومن حيث ما أعطاك الله عز وجل من إرادة ومن قوى، تستطيع أن تفعل فتطيع، وتستطيع أن لا تفعل فتعصي. والكلمة تعني أن الأوامر الإلهية تختيارية من ناحية قدرة الإنسان التكوينية على الفعل وعدمه، على الاستجابة وعدمها، من ناحية الإرادة التي وهبها الله عز وجل لهذا الإنسان بأن يفعل أو لا يفعل.

ولولا هذا التخيير، ولولا هذا الإقذار على الفعل وعدمه - من حيث ما رُزق الإنسان من إرادة، ومن حيث القوى التي وفرها الله ﷻ له - لبطل التكليف. فإن المسألة لو كانت جبرية لم يكن معنى لأن يأتي رسل، وتنزل كتب، وتكون خطابات، ولبطل الثواب والعقاب كذلك. يبطل الثواب بما هو ثواب. نعم، يمكن أن يحسن الله سبحانه للعبد حتى لو لم تكن منه طاعة وحتى لو كان مجبوراً، أما عنوان الثواب والجزاء فلا يتحقق إلا بأن يكون الإنسان قادراً على أن يفعل وأن لا يفعل، فاختر الفعل في مقام الأمر، واختار عدم الفعل في مقام



النهي. فالإمام عليه السلام في هذه الكلمة الواردة عنه ينفي مسألة الجبرية عن الإنسان، ويقرر أن الإنسان مختار في مسألة الطاعة والمعصية لله في مورد التكليف. فهناك مساحة للتكليف، هذه المساحة للتكليف، الإنسان فيها قادرٌ على أن يطيع وعلى أن يعصي.

٢- أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً:

هناك أوامر ونواهٍ إلزامية كما سبق، ومعنى الإلزام في الأوامر وفي النواهي أن القانون يفرض عقوبة على من تأخر عن الفعل في مورد الأمر، أو أقدم عليه في مورد النهي. هذا معنى الإلزام التشريعي والقانوني. نحن ملزمون بالصلاة بمعنى أننا إن لم نصل نستحق أن نؤاخذ، والخمر محرّم علينا لزوماً بمعنى أن من شرب الخمر منّا حقت في حكم الله عقوبته.

النواهي على المستوى التشريعي فيها ما هو إلزامي، ولكن على مستوى القدرة على الترك والفعل، فكل النواهي - ما كان منها على مستوى الكراهة، وما كان منها على مستوى التحريم - فإنها تخييرية، أي: أنا بما أنا إنسانٌ قد أعطاني الله عز وجل الإرادة، وأعطاني اليد التي تتحرك، والعين التي تبصر، والجوارح الأخرى، وأعطاني كل الظروف التي تمكنني من الفعل وعدمه؛ فأنا مختار، والاختيار هو أرضية التكليف وأرضية الجزاء من ثواب ومن عقاب.

من جهة أخرى نجد أن القرآن الكريم لم يحمل تعليمات طبيّة صريحة في كلّ الموارد تمثل تحذيراً من الأمراض الخطيرة، لم يأت التحذير من السرطان في القرآن الكريم والأخذ بأسبابه، لم يأت التحذير من السلّ ومن أسبابه، التحذير القرآني لم ينصبّ بشكل واضح وجليّ ومركّز إلا على خطر الآخرة.

نعم، في القرآن قواعد صحيّة، في القرآن قواعد حياتية تمثل منهجاً إلهياً للنجاة في هذه الدنيا والسعادة فيها، لكن التركيز في التحذير إنما نجده على أخطار الآخرة. لماذا؟ الإنسان هنا مدفوع بأن يهتم اهتماماً بالغاً بصحته، وقد أعطي العقل للبحث والاستقصاء في أسباب ما يشفي مرضه، وما يمرض جسمه، وما يقيه الأمراض. الإنسان أعطي عقلاً يمكن أن يتحرك به في هذه الحياة ويبني حياته من خلال جهده العقلي، ومن خلال تجربته وخبرته. ولو لم يكلف الإنسان بأن يقيم حياته بيده، وأن يتقدم بها بيده، لملّ الإنسان وسئم.

لكن العقل الفعال في قضايا الحياة، وفي قضايا العلم الذي يرتبط بالحياة، والصحة التي ترتبط بالبدن، هذا العقل لا نجده قادراً على أن يقضي بأمر في مسألة الغيب. نعم، العقل يطلُّ بك على الغيب، يعطيك إيماناً بالغيب، أما تفاصيل الغيب فيقف العقل عاجزاً عن أن يقضي فيها. نحن لا نرى خطر الآخرة. نحن نرى المرض وصعوبة



المرض، نرى الموت فنتوقّى منه، نرى السقم الفتاك الذي يمثل معاناة لصاحبه، ولذلك نطلب كل الوسائل التي نستطيع أن نفرّ بها من المرض، نفرّ بها من الفقر، نفرّ بها من المعاناة، أما خطر الآخرة فليس لنا علم به، لذلك يأتي التركيز الكبير على خطر الآخرة والتحذير منه.

ثم إن خطر الآخرة لا يمكن أن يقاس به خطر الدنيا بأي صورة من الصور. هذه الأخطار الدنيوية، هذه الأمراض والأسقام التي تمثل معاناة وعذابات شديدة في الحياة، حين تقاس بخطر الآخرة لا تساوي شيئاً، لا في مدتها ولا في كمّها ولا في نوعيتها. فخطر الآخرة، عذاب الآخرة، يفوق بما لا نستطيع أن نقيسه عذاب الدنيا إقامةً ونوعاً وكمّاً. حيث إن من صورة عذاب الآخرة أن الإنسان يجتمع عليه العذاب نفسياً وروحياً وجسدياً دفعة واحدة، ولا يشغله عذابٌ عن عذاب، ولا يفارقه العذاب لحظة. وعذاب الآلام وعذاب النار قد يكون معه عذاب اليأس وعذاب الاحتقار للذات.

على كلّ حال نحن لا نمتلك صورة عن عذاب الآخرة، ولا نقدر لذلك العذاب قدراً، لذلك نجد القرآن الكريم يركز على التحذير من خطر الآخرة وعذابها.

الكلمة تقول عنه ﷺ «ونهاهم تحذيرا»، لأن كل ما نهى الله عنه يمثل ارتكابه نقصاً في الذات، تخلفاً في الذات، ثلثة في الذات. هذه الثلثة في الذات تنزل بالإنسان من موقع إلى موقع، من موقع يرقى به في الجنة إلى موقع ينزل به إلى النار. هناك نتائج حتمية، هناك علاقات موضوعية بين ما نفعل من حرام وبين ما يترتب على ما نفعله من ذلك الحرام. مسألة الجزاء الإلهي على المحرمات تختلف عن مسألة الجزاء القانوني الدنيوي على المحرمات.

هنا يتصدى فرد أو تتصدى مجموعة تشريعية لتقول وتعتبر بأن الفعل الفلاني يعاقب عليه بالعقوبة الفلانية، هذا ربط تشريعي بين الفعل والجزاء، ونسمي هذا النوع من الجزاء بالجزاء الجعلي. يعني الجزاء القانوني هو جزاء اعتباري جعلي.

بالنسبة لمحرمات الله ﷻ. الارتباط بين الجريمة وبين جزائها ليس ارتباطاً اعتبارياً جعلياً، وإنما هو ارتباط تكويني وعلاقة موضوعية خارجية. الخمر ينزل بالمستوى الروحي حقيقةً، ونزول مستوى الروح حقيقة يعني أخذها صورة تعذيبها، وهكذا بالنسبة لباقي المحرمات.

والتحذيرات الشديدة في القرآن الكريم التي تُفزع وترعب هي ليست للفرع والرعب الذي يربك الحياة، وإنما هي للتبصير



والتهذيب، لأن غفلة الإنسان عما يرتكب من ذنب، ونتائج هذا الذنب توقعه في أشد العذاب. وصحيح أن الله غفور رحيم، ولكنه شديد العقاب، ونحن نرى في هذه الحياة عياناً أن الله غفور رحيم وأن الله شديد العقاب. الكوارث التي تواجه الإنسان في الحياة هي تعبير عن أن الله شديد العقاب، وإمهال الكافر، وفيض الرزق عليه، وإعطاؤه من خيرات الله خطاباً للناس بأن الله غفور رحيم.

فالخطابان الإلهيان اللفظيان القائلان بأن الله غفور رحيم، وأن الله شديد العقاب، معهما أيضاً خطابان إلهيان تكوينيان يعبران عن أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم. وقد يجد الإنسان في حياته الشخصية مصداقاً جلياً لكون الله غفوراً رحيماً، ولكون الله سُبْحَانَهُ شديد العقاب.

٣- كلف يسيراً ولم يكلف عسيراً:

نحن نعرف أن في الحج صعوبة، أن في الصوم صعوبة، أن في الصلاة صعوبة، فكيف تقول الكلمة كلف يسيراً ولم يكلف عسيراً؟ وهذا ما يقرره الإسلام في نصوص كثيرة من أنه بُني على اليسر ولم يُبن على العسر، وقد نُفي الحرج في أكثر من نص. الإسلام ينفي العسر والحرج ولا ينفي أصل الكلفة.. هناك كلفة.

هناك ثقل في التكليف، في الأوامر الإلهية والنواهي الإلهية، والكلفة غير العسر وغير الحرج. الحرج أن يجعلك التكليف في حالة ضيق بحيث لا تستطيع أن تتحرك الحركة التي تبنيك فرداً وتبنيك مجتمعاً، وتعرقل حياتك، وتعرقل نموك الاجتماعي، الاقتصادي، السياسي، نموك الروحي، نموك التربوي، الأخلاقي. العسر يعني هذا، ولا يعني أن تتحمل ثقلاً لتبني اقتصادك، ولتبني اجتماعك، ولتبني سياستك، ولتبني ذاتك. فالمنفي هو العسر الذي يعطل حركة الحياة، ويشلها ويمنع من تقدمها ووصول الإنسان إلى غايته. أما التكليف والكلفة التي تعين الإنسان على أن يقطع الدرب، على أن يحقق الغاية، فهذا ليس عسراً وليس حرجاً. ما يقابل أصل الكلفة هو الإهمال، هو التسيب. الإسلام لا يدعي أنه يُشرع حياة إنسانية متسيبة، الإسلام يقول بأني أشرع للإنسان حياة تقوم على الجِدِّ، تقوم على البناء، تقوم على تحمُّل الكلفة، وأعطيه الروحية القادرة، وأعطيه النفسية القادرة، وأعطيه الجو الاجتماعي القادر، وأخلق له الأجواء الخارجية التي تساعد على أن يتحمل الكلفة بيسر، وهو ينفي العسر في نفس الوقت.

فالمقرر هو أن الإسلام جادٌ، وفيه تكاليف بناء، والحياة فيه ليست متسيبة، ولا هي بحياة الأغنام، ولكن أيضاً ليس في الإسلام عسر ولا حرج.



وحين نقف على كل المقاطع للكلمة الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام نجد أن الفكر المتلقّى عن طريق مدرسة أهل البيت عليه السلام لا غبار عليه، ولا يوقع العقل في حيرة وتردد وإشكالات عويصة، ولا يستلزم أن ينسب إلى الله عز وجل ما لا يليق بشأنه من ظلم أو عجز أو تعطيل. فنرى هذا الفكر يقدم حلاً شافياً واضحاً لمسألة الجبر والتخير، يقدمه في كلمات يسيرة بعيدة عن لغة الألغاز والمعميات. ومسألة الجبر والتخير هي المسألة التي أتعبت الفلاسفة والمتكلمين وأصحاب المذاهب المختلفة من غير أن يهتدوا إلى سواء السبيل فيها.

أول مدرسة، والمدرسة الوحيدة التي قدمت حلاً عقلياً في المسألة يرتضيه العقل ويستريح إليه، هي مدرسة أهل البيت عليه السلام. وكل المدارس الأخرى التي أعطت رأياً آخر في قبال رأي أهل البيت عليه السلام مضطرة أن تتراجع عن رأيها، وإلا نسبت إلى الله ما لا يليق.

(١)

٤- وأعطى على القليل كثيراً:

في تعاملات الدنيا.. كم يبذل الناس وكم يأخذون. الطالب يدرس سنوات متواصلة، يبذل فيها جهداً كبيراً، ويسهر الليالي من أجل شهادة توظفه بعض سنوات، يستأتي له من هذه الشهادة والوظيفة منزل يأوي إليه، لقمة تشبع بطنه، كسوة تكسو ظهره، وما زاد عن الحاجات المعقولة للبدن مما ذكر وأمثاله ينقلب عليه مضرة. كل ما يمكن أن يحصله الإنسان من جهاد الدنيا في الدنيا هو أن يسدّ حاجاته، وكلما بالغ في اللذات كلما أهلك نفسه وأتلف عمره، وجلب لنفسه المضرة البالغة. هذه هي حصيلة الشهادات، وحصيلة الابتكارات والاكتشافات، والعمل الدؤوب والسهر الطويل، وليس شيئاً آخر على مستوى الدنيا. أما الشهرة فهي وهم؛ فإن الشهرة والجاه لمن كانا له لا يُسكنان أله، ولا يُفرّجان همّه، وقد يكون الإنسان ممن يتقلب في فراشه من مضض الألم وثقل السقم، واسمه

(١) خطبة الجمعة (١٤٥) ٢٠ محرم ١٤٢٥هـ - ١٢ مارس ٢٠٠٤م



مستطير في العالم كله، ولا ينقذه أن اسمه مشهور، وأن له شهرة عريضة في العالم.

ويهجم الهم على القلب، والواحد منا بين أحبته وفي قومه وملاه، وهو محاطٌ بكل الأسباب التي تعطي في الظاهر الأمن، إلا أن كل ذلك لا يفرج له همّه ولا يكشف عنه غمّه.

فالعمر حين يُبذل للدنيا، ثمّنه قليل. والنفس حين تُستهلك في دائرة الحياة الحاضرة، هي نفسٌ رخيصة. فالأثمان في الدنيا بين أهلها قليلة، يُعطي الواحد قبالَ ذكائه وفطنته وحكمته وخبرته وتجربته ودراسته الطويلة - بعد أن تشتريه أمريكا أو روسيا أو أي بلد آخر - ما يوفر له البيت واللّقة والكسوة مما سبق ذكره ولا أكثر، على أنه يكون المستهدف، المبعوض، السّاقط.

فالأثمان بين أهل الدنيا للحياة قليلةٌ أيها الإخوة، وقليل الإنسان في تعامله مع الله إنما يدفعه لنفسه. وهو أساساً نعمةً من الله عنده، أما ما أعده الله له فتقلّ عنده الدنيا كاملة. صلاةٌ واحدة من العبد يقبلها الله ﷻ لا تقع الدنيا كلها ثمناً لها في كرمه وجوده. والتفتوا أن ثمن الدنيا منته، وثمن الآخرة على بقاء وفيه خلود، وثمن الدنيا ثمن متنازع عليه، وثمن الآخرة ثمنٌ مأمون لا ينازعك أحد عليه. وثمنٌ

هنا قد لا يدفع مرضاً، وثن هناك يعني السعادة بكاملها. فروق وفروق بين ما هو ثن الدنيا وبين ما هو ثن الآخرة.

أما ماضوية الفعل حين تقول الكلمة «وأعطى على القليل كثيراً» فهذه الماضوية بلحاظ التشريع. فقد شرع ﷺ وكتب أن يعطي على القليل كثيراً، وقد تكون هذه الماضوية في الفعل لما عليه تحقق الوعد الإلهي حتماً، وأن وعد الله في حكم فعله، وأن ما وعد الله به ﷺ واقع واقع.

٥- ولم يعص مغلوباً:

من يعصى من الناس قد تكون معصيته لمغلوبيته لأنه عاجز قاصر القدرة. فالحاكم من حكام الناس قد يعصى، ومعصيته قد تكون لقصور قدرته، أما الله ﷻ فلا قصور في قدرته. ولو فوض الله ﷻ لخلقه الفعل، وأنه خلق وانفصل عن خلقه بقدرته، وكانت لهم القدرة المستقلة على الفعل، لعنى ذلك أن قدرة الله قاصرة فعلاً، وأن عجزه ﷻ متحقق وحاشى الله.

قدرة الله في مدرسة أهل البيت عليه السلام ممسكة بكل المخلوقات ونظام الكون في كل لحظة، فكونكم كله نور، وهذا النور لا يبقى إلا بقاء مصدره، ومدد من مصدره. نور المصباح لكي يبقى لحظة لا بد أن



يُمدُّ بالطاقة الكهربائية من المصدر، وحين تنقطع الطاقة الكهربائية ويتوقف التيار فلا نور للمصباح. ولو توقف تيار المدد الإلهي عن هذا الكون لحظةً لغرق في ظلمة العدم. فالوجود نورٌ، ونوره بمددٍ من مصدره الإلهي الدفاق الذي لا ينتهي.

الكون يُخلق في كلِّ لحظةٍ لحظة. الكون، يتدفق الفيضُ الإلهي ليوصله حدوثاً بعد حدوث، وليس أن الكون وجد وبقي مستمراً وحده. نور المصباح لم يوجد وينفصل عنه مصدره، واستغنى عن مصدره، والكون أيضاً لا يستغنى عن مصدر العطاء لحظة واحدة. هكذا تُصورُ لنا مدرسة أهل البيت عليهم السلام الأمر. قدرة الله في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ممسكة بكل المخلوقات ونظام الكون في كلِّ لحظة، وهي التي تمد الإنسان بالطاقة والفعل ومتطلباته، وقدرة اختياره وعدمه، حتى قدرتك على الاختيار تُعطى لك كلِّ لحظةٍ لحظة. أنت مختار، ولكن المسك بهذا الاختيار هو الله. الذي يعطيك هذا الاختيار هو الله، ولو شاء في أي لحظة أن يوقف عنك قدرة الاختيار لأوقفها، لو شاء أن يجبرك لأجبرك. فلا مكان للقول بأن العبد يعصي قهراً على الله تعالى.

وهذه الكلمة من الإمام علي عليه السلام «ولم يُعصَ مغلوباً» للتصحيح العقيدي، لأن هناك رؤية تقول أن الله يطاع ويعصى خارج إرادته

التكوينية، وهذا تعطيلٌ لقدرة الله ﷻ. الكلمة للتصحيح العقيدي وللحماية النفسية من الانهيار أمام انتفاش الباطل على يد الكافرين والمنافقين، ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ، جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾^(١). ما هم الأحزاب؟ ما قيمتهم؟ ما قيمة أمريكا، روسيا، الصين، اليابان، كل العالم الكافر؟ «جندٌ ما»، هزيلٌ، صغير، لا يُذكر، مهزومٌ أمام قدرة الله ﷻ وجبروته وبطشه وأخذه. فلا انهيار، لا انهيار، لا سقوط في نفسية الإنسان المؤمن أمام انتفاش الكفر.

٦- ولم يطع مكرها:

أولاً: الطاعة تكون بفعل المأمور به وترك المنهي عنه، فلو كان الإنسان مجبراً على الطاعة مطلقاً لم تقع منه المعصية. الإجبار على الطاعة يعني أن لا تقع من الإنسان معصية، بينما المعصية واقعة من الإنسان فعلاً. هذا يكشف عن أنه لا إجبار على الطاعة. أنت لو كنت مجبراً على الطاعة لم تستطع أن تعصي ولو مرة واحدة، ولكننا نعصي، وهذا برهان أننا لسنا مجبورين على الطاعة.

(١) سورة ص : ١٠-١١



ثانياً: لو كان الإنسان أحياناً يجبر على الطاعة وأحياناً يجبر على المعصية ويعاقب عليها لكان الله ظالماً، تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً. على أن طاعة المطيع أسبابها من عند الله، وإقدار العبد على اختيارها بفضله، ولا تحصل له إلا بتوقيفه. أكونك مختاراً في طاعتك يعني أن لك جميلاً على الله؟ أن لك تفضلاً على الله؟ لا أبداً. لماذا؟ الجواب هذا: طاعة المطيع أسبابها من عند الله، وإقدار العبد على اختيارها بفضله ولا تحصل له إلا بتوقيفه .

ثالثاً: الجزاء بالثواب على الطاعة مُستحق، لكن ما معنى استحقاق العبد ثواب الله على طاعته؟ هل سجلّ جميلاً على الله، فكان على الله أن يجزيه؟ كونك تستحق الثمن من عندي أنك أعطيتني مُثمناً. العبد لا يعطي الله شيئاً أبداً حتى يستحق عليه بذات فعله ثمناً، ذات الفعل من العبد لا يسجل على الله عوضاً أبداً. ليس لرسول الله ﷺ ثمنٌ لطاعته عند الله باستحقاقٍ ذاتي لأفعاله وطاعته، إنما هذا الاستحقاق يعني أن الله ﷻ كتب على نفسه أن يجزي المطيع بالإحسان، وكتب ذلك على نفسه تكريماً منه وتفضلاً، وليس أنك سجلت على الله جميلاً تستحق به ثواباً عنده.

الجزاء بالثواب على الطاعة مستحقٌ، واستحقاقه ليس ذاتياً لفعل العبد، لأنه لا إحسان منه لبارئه، وإنما استحقاقه يجعل منه سبحانه، وبما أخذه على نفسه من مجازاة طاعة العبد بالإحسان إليه.

(١)

[نصل إلى] الجملة الأخيرة من الكلمة السابقة عن أمير المؤمنين عليه السلام :

٧- « ولم يرسل الأنبياء لعباً »

والحديث في أجواء هذه الجملة يأتي في نقاط :

نظرة أساس: [هادفية الخلق والحياة]

هنا سؤال، وهو سؤال مهم وجذري: كيف ننفق الحياة؟ وسؤال آخر يأتي قبل هذا السؤال: الكون، الحياة، الإنسان، الرسالات، مبنية على الجِد أو اللعب؟

إن كانت هذه مبنيات على اللعب فالحياة ينبغي أن تُتخذ لعباً، وإذا كانت مبنية على الجِد فالحياة ينبغي أن تُتخذ جدّاً. واللعب هو فعلٌ لا يحمل القصد الصحيح، قد يحمل قصداً إلا أنه القصد الذي لا

(١) خطبة الجمعة (١٤٦) ٢٧ محرم ١٤٢٥ هـ - ١٩ مارس ٢٠٠٤ م

يتناسب ومستوى الإنسان، وخط الحياة، ومسار الكون، ولا يتناسب مع دور الإنسان في الحياة. والعبث هو أن يخلط الإنسان في عمله بين الجد واللعب، فإذا كان العمل يحمل مع الجد لعباً، فهو من العبث، فالجد إنما يكون مع كون الفعل يحمل غرضاً صحيحاً وهدفاً سليماً. والغرض الصحيح هو ما يتناسب مع الإنسان حجماً، ما يتناسب مع الإنسان دوراً، ما يتناسب ويتسق مع خط الكون، والحياة، والوجود.

السؤال الأساس: الكون، الحياة، الإنسان، الرسائل، مبنية على الجد أو اللعب؟

ماذا تقول عنه النظرة العلمية؟ وماذا تقول عنه النظرة الفلسفية؟
وماذا تقول عنه النصوص؟

شيء سريع وسطحي:

النظرة العلمية:

أجزاء الكون، جزئياته، ذراته، ما تأتلف منه الذرة، كل ذلك له مواقع محددة، علاقات مترابطة، مراتب وجودية منضبطة، أدوار متكاملة، مسارات ثابتة، غايات مرسومة. علام يؤكد هذا الواقع؟



قد فرغ العلم من تقرير هذه الحقائق، وأن الكون ليس أجزاءً متناثرة، وليس ذرات متناثرة. الكون يخضع لنظام دقيق من مجرته إلى ذرته وما هو أقل من الذرة. هذا الواقع علام يدل؟ يدل على اللعب أو يدل على الجد؟ يدل على العبثية أو يدل على الهادفية؟ لا شك أن هذا النظام المحكم الدقيق برهان الهادفية.

الإنسان نجده قوىً للتحريك المادي، وقوىً للتحريك المعنوي، وقوىً للضبط و التحكم والتوجيه. هذه القوى كلها متناسبة وترتبط بعلاقات محكمة، وهناك تناسبٌ كبيرٌ ودقيق ومحكم بين الإعداد في وجود الإنسان وبين الغاية، فما من شيء في تركيب الإنسان قد وقع فضولاً، لا على المستوى الجسمي، ولا على المستوى العقلي، ولا على المستوى النفسي، والمسألة واضحة كل الوضوح للذين خاضوا غمار العلم في هذه المجالات. على أن النظرة العادية للإنسان تُعطي أن هذا المخلوق وجودٌ متكامل، وصناعةٌ محكمة. أيّ جهازٍ من أجهزة البدن، وأي جهازٍ من أجهزة النفس والعقل يحمل عجائب ودقائق تُذهل المتأمل من العوام فضلاً عن العلماء الذين يخوضون البحث في هذه المجالات.

هذا الواقع ماذا يقول؟ هل يؤكد العبثية واللعب؟ أو يؤكد الجدية؟ تجدون تناسبا بين ما عليه مرحلة الإعداد الجنيني وبين ما هو

مستقبل حياة هذا المخلوق على الأرض، وأن الجنين يُعدّ إعداداً لو اقتصر نظر الناظر بالنسبة إليه على مرحلة الجنينية لوجد ذلك فضولاً، ولكنَّ هذا الإعداد يأتي حكيماً ومتناسباً جداً مع لحاظ مرحلة الحياة فوق الأرض. هناك إعداد آخر أيضاً في هذا الإنسان يتصل بنيته مستوياً لا نستطيع أن نفسره في إطار الحياة الدنيا، وإنما يظهر أثره حينما نلاحظ حياة أخرى تعقب هذا العالم.

فالفكر البعيد الذي يتجاوز عالم المادة، والتطلّعات الناضرة إلى الغيب، والطّموحات المتجاوزة لعالم الدنيا، وهذه الأشواق للخلود الذي لا يمكن أن يحصل في هذه الحياة، أمورٌ من هذا النوع. دوافع وطاقات يحملها وجود الإنسان من النوع الذي يتجاوز بوجوده هذه الحياة، لا نستطيع أن نفسرها في إطار حياتنا الحاضرة، كما لا نستطيع أن نفسّر كثيراً مما يدخل في بنية الإنسان في مرحلته الجنينية حينما يقتصر نظرنا على تلك المرحلة، هذا بالنسبة للإنسان.

بالنسبة للحياة؛ نجد الحياة فرصة للنمو والتكامل، وهي تعبر عن مسافةٍ يعني قطعها بمنهج صحيح الوصول إلى أعلى درجة نضج تتناسب وطبيعة المرتبة الوجودية للكائن الحي. صادق هذا بالنسبة للإنسان، بالنسبة للحيوان، بالنسبة للنبات. النبات يبدأ ببذرة،



وحياته تصل به إلى شجرة مثمرة، الإنسان يبدأ نطفة، وإذا دخلت الروح في الجنين جاء النمو، وجاءت الحركة التي تصل به إلى حد الإنسان السوي، المرید الفعّال. هذه هي الحياة، فالحياة موجهة، الحياة مُهدّفة، الحياة قاصدة، والحياة مرسوم لها مسار تصاعدي يبلغ بالحي إلى أقصى درجة نضج يطيقها. فالحياة هادفة، الوجود المادي هادف، الإنسان في وجوده، في تكوينه، هادف كوننا كله هادف.

أما الرسائل فهي أطروحة واحدة من حلقات متلاقية أساساً وثوابت، ومتحركة حسب متطلبات المسيرة التكاملية للمجتمع البشري، من أجل الدفع بحركة الحياة وقيادتها على الخط الصحيح، وتلبية حاجات الإنسان على الأرض، وتكميل ذاته الإنسانية في جميع أبعادها. وهي حركة تغييرية تنطلق من جذور الوجود والحياة الإنسانية، لتصوغ الإنسان على درب التكامل موجوداً عملاقاً مؤثراً.

الخلاصة:

هذه الأربعة الأمور: الكون، والإنسان، والحياة، والرسالات، خالية من اللهو، خالية من العبث، خالية من اللعب. فكيف تتخذ أنت حياتك؟ في ظل هذا الواقع الذي يؤكد الهادفية في كل شيء، وتعيشه

المجرة، والذرة، والنبته، والورقة والجذر من النبتة، وكل شيء في هذا الوجود، أنت الإنسان العاقل كيف تتخذ حياتك؟ أتتخذها سرفاً؟ أتتخذها لعباً؟ أتتخذها عبثاً وهزواً؟ مؤلم جداً أن هذا الإنسان المتميز بمواهب كبيرة عملاقة من الله ﷻ يكون أخس شيء في الكون، إذ كل شيء في الكون على مسار هادف، وهو ينحدر عن خط الهادفية!

النظرة الفلسفية:

النظرة العقلية الفلسفية تقول بأنه: يستحيل على الكامل ﷻ اللعب والعبث والإهمال والتضييع، فليس شيء من صنع الله يمكن أن يأتي لهواً أو عبثاً أو فيه إهمال وتضييع.



النصوص:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾^(١) .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(٢)
 فتعالى الله الملك الحقُّ لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم﴾^(٣) .

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(٣)

الآية الأولى تتحدث عن هادفية الكون، الآية الثانية تتحدث
 عن هادفية الإنسان، الآية الثالثة تتحدث عن هادفية الحياة.

وهناك أكثر من آية تحمل المضمون الآتي، وهنا أقرأ آية واحدة:

(١) سورة الانبياء: ١٦.

(٢) سورة المؤمنون: ١١٥-١١٦.

(٣) سورة الملك: ٢.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾^(١)

أي حياة هذه التي يصفها الله ﷻ باللعب واللهو؟ التي خلقها؟! هو لا يخلق عبثاً. حاشاه العبث ﷻ.

لكن الحياة المفصولة عن الآخرة، عن الهدف الذي خلق الله الحياة من أجله، تتحول على يد الإنسان المختار اختياراً سيئاً لعباً ولهواً وعبثاً. وتجذون الآية الكريمة هذه تتحدث عن وجهين «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ» هذا وجه، والوجه الثاني «وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ» فالآية الكريمة تتناول الحياة الهادفة، الحياة الهادفة تستعقب أجراً عظيماً، وتستعقب خلوداً راجحاً. أما القسم الأول من الآية الكريمة فيتحدث عن حياة مبتورة عن امتدادها في فعل هذا الإنسان، في تصويره، في شعوره، في ممارسته. الحياة المبتورة عن امتدادها الأخروي، والتي لا تحمل أهداف الآخرة، ولا تحمل حسابات الآخرة، ولا تأخذ بالنظر إلى الآخرة هي حياة لهو ولعب.



وتقول الآية الأخرى عن هادفية الرسالات :

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١)، ثم آية أخرى :

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ (٢).

الرسالات جاءت لتصعد بالإنسان، لتأخذ به في رحلة إلى الله تعمر قلبه، تحيي نفسه، تنطلق بروحه إلى آفاق الرحمة، وآفاق اللطف، وآفاق الكرامة الإلهية. أما الممارسات الأرضية التي تعالج بها الرسالات المشاكل الأرضية فذلك من الوسيلة. والهدف هو الصعود إلى الله، الهدف هو ليس صناعتك جسداً، وإنما الهدف صناعتك روحاً، وقلباً، ونفساً، وفكراً. أنت لن تخرج بهذا الجسد من هذه الحياة، إنما ستخرج إلى الحياة الآخرة بروح خالصة مفصولة عن

(١) سورة الجمعة: ٢.

(٢) سورة الاعراف: ١٥٧.



المجسد، فاهمَّ كلَّ اَهمَّ ينصبُّ على ما يبقى، لا على ما يتحول تراباً
وذرات ضائعة في الكون العريض.

(١)

أرضيتان وحياتان:

نظرةُ جدٍ للكون، والحياة، والإنسان، والدنيا، والآخرة، لا تستوي ونظرة لعبٍ لكل ذلك. فحياةٌ تقوم على نظرة جد غير حياة تقوم على نظرة لعب. فمن نظر إلى الكون والحياة والإنسان والدنيا والآخرة نظرة جد أقام حياته كلها على الجد، ومن نظر إلى ذلك نظرة لعب جاءت حياته لعباً وعبثاً وهواً.

أرضيتان يقوم على كلٍّ واحدة منهما منهج غير ما يقوم على النظرة الأخرى. نظرة الجد تقوم عليها الهادفية، الاختيار الواعي، المواقف المتدبرة، المسلك الجاد، الرقابة والمحاسبة، الرؤية الشاملة للماضي والحاضر والمستقبل، وضوح المصير، فالمذنب يعرف مصيره، والمحسن يعرف مصيره، اطمئنانٌ للحياة، للوجود، للكون، للحاضر، للمستقبل. احترامٌ للذات وللآخرين، انضباط على الخطّ الواضح اللاّحِب. من نظر إلى الكون والحياة والإنسان والمصير نظرة

(١) خطبة الجمعة (١٤٧) ٥ صفر ١٤٢٥ هـ - ٢٦ مارس ٢٠٠٤ م

الجد فكر، وتدبر، وتأمل، وبنى مواقفه على رؤية واضحة تمتد إلى المستقبل البعيد، واستثمر الوقت الاستثمار الذي ينسجم مع هدف الحياة، مع هدف الكون، مع هدف الوجود.

أما نظرة اللعب فما يقوم عليها هو اللاهؤية على المدى الطويل، وإذا كان لنظرة اللعب أن تُنبت أهدافاً فهي أهداف اللاعبين، أهداف قصيرة، أهداف كلها تنصرم في الحياة، وتتحرك في دائرة الحياة. أما الحياة في امتدادها الطويل، وجود الإنسان في مستقبله البعيد، فيبقى في نظرة اللعب بلا هدف!

الطفل قد يستهدف من لعبه شيئاً، ولكنه ليس الهدف الطويل، ليس الهدف المستمر، ليس الهدف البناء الذي ينسجم مع ما يقصد إليه العقلاء، وإن كان يأتي لعب الطفل جداً بحسب مرحلته. وفي لعب الطفل إعداد له للحياة، وما هو لعب في حق الكبار قد يكون عين الجد في حق الصغار، أما أن الكبير يصير صغيراً بأن تكون أهدافه صغيرة قصيرة منقطعة فتلك الكارثة، وذلك هو الجنون، وذلك هو السفه.

نظرة اللعب تقوم عليها اللاهؤية على المدى الطويل، وأهدافها وهمية، كهدف الخلود من خلال بقاء الاسم، من خلال بقاء البنايات الشاحخة، من خلال تخليد الجندي بتمثال للجندي المجهول. كل ما



نخلفه من ذكر، كل ما نخلفه من أثر لا يمثل شيئاً بالنسبة إلينا إذا لم ينقذنا في الحياة الآخرة، ولا يمثل لنا بناءً مستقبلياً راجحاً.

مما يقوم على نظرة اللعب للكون، للحياة، للإنسان، عبثية الحياة في مسلك الإنسان، ولا قيم في خط هذه النظرة، والنظرة على هذا الخط للذات وللآخرين نظرة ازدرائية، نظرة احتقار.

أنا لما أنظر لنفسي حيواناً لا أكثر، وأنظر لوجودي بأنه وجود ستين سنة ثم يتحول إلى جيفة وتراب وذرات منتشرة ضائعة في الكون العريض، فما هي تلك القيمة لهذا الوجود؟ المرء لما ينظر إلى نفسه جسداً، والجسد بين نطفة وجيفة، وهو على هذا الخط إناء عذرة، ما قيمة هذا الإنسان؟! من عمي عن أن ينظر إلى ذاته النظرة الصحيحة الإلهية، والنظرة الفطرية، على أنه شعاع من نور الله ﷻ، على أنه عقل، على أنه ضمير، على أنه روح متصلة بفيض الله ﷻ، وقادرة على أن تعبر المسافات الطويلة إلى منازل الكرامة عند الله، من لم ينظر إلى نفسه هذه النظرة فما قيمته؟! أهو أكبر وجوداً من ثور هائج؟ أو من حشرة راكنة؟ لا أرى للإنسان وجوداً أكبر من الحيوان حين تتخلى نظرتة عن وجوده الروحي، وعن وجوده الشعاعي، وعن نور الفطرة في داخله.

هذه النظرة - نظرة اللعب إلى الكون والحياة والإنسان - تنبثق عنها كما سبق نظرة ازدرائية للذات وللآخرين. والمستقبل في إطار هذه النظرة مستقبلٌ محدود متهاونٌ به. أنا كم سأعيش؟ سأعيش ستين سنة؟ مائة سنة؟ مائتي سنة؟ إنه مدى محدود، ومستقبل قريب. أما صاحب النظرة المجادة للكون، للإنسان، للحياة، فلا يسعه أن يتهاون بالمستقبل الممتد، بالمستقبل الأبدي، لا يمكن أن يتهاون بشقاء دائم، أو بسعادة خالدة.

نظرة اللعب للكون للحياة، للإنسان، تعطي الإباحية، و تعطي أن يقضي الإنسان حياته في اللذات الوقتية، وتعطي له أن ينطلق مع خط الإباحية، وتولد قلقاً وغموضاً في المستقبل البعيد غير المحدود، فإنه لا يمكن لإنسان ينظر إلى الكون وإلى الحياة نظرة اللعب أن يحدد تماماً أن هناك آخرة أو ليس هناك آخرة.

جدُّ لا لعب:

اللعب بالمعنى الظاهر مكشوف لنا، ولكن هناك لعباً خفياً المعنى، تدرك فئة من الناس - فئة الأنبياء والمرسلين والأولياء ومن تدبر - أنه لعب، وأكثر الناس يرون فيه الجدَّ كلَّ الجد.



أمثلة عابرة:

١- عملٌ يستغرق النهار وشطراً من الليل: ركضاً وراء المال في حالة من الغنى. إنسان استغنى غنىً يكفيه الحياة، ولكنه لا زال يلهث وراء المال لهُاث الفقير بفقر مدقع. لا يراد له أن تتعطل حركته في الحياة، ولكن يراد له أن ينظر الحياة وصلة للآخرة، وجسراً للآخرة. هذا المسكين لا زال يرى الحياة كل شيء، لا يزال يرى الدنيا كل الأمل، ولا يزال يراها كل المعنى. إنه يتلهى، إنه يلعب. وكل من انحدر عن خطّ الهدف لاعب.

٢- زخرفات تتجاوز الحد المعقول: فيما نبني، فيما نفتني.

٣- حرق الثروات الفائضة مع جوع الملايين طلباً لأرقام هائلة من المال.

٤- الصناعات البذخية من غير فائدة بناءً إلا الشهرة والتباهي: هناك مقتنيات تسعى إليها النفوس الرخيصة، لا تؤدي أي دور في حياتها، ولا تخدم هدفها من الحياة، ولكنها تستهوي نفساً صغيرة، فيجمع من المقتنيات ما يجمع من غير أن يعرف لذلك هدفاً. صحيح أن هناك هوايات، ويمكن أن تتجه الهواية لبعض المقتنيات، لكن أن

يصل الأمر إلى حد السرف، إلى حد التلهي، إلى حد أن لا أرى ذاتي إلا في هذه المقتنيات، إنه ضربٌ واضحٌ من ضروب اللعب.^(١)

٥- إشعال الحروب وتدمير الثروات للحملات الانتخابية، ومن أجل تثبيت الكرسي: يُقدم رئيس من رؤساء الجمهوريات على أن يدخل بلده كلها في حرب من أجل أن يعاد انتخابه، ومن أجل أن يتستر على فضائح له.

٦- سباق الشكليات: كأكبر كعكة، وأكبر شجرة زينة صناعية، وأعظم قلادة ورد.

٧- توظيف ملايين الدولارات والدنانير للعبة كرة القدم: وهنا لا خلط، فقد يتوهم البعض أنني أقول هنا بجرمة رياضة كرة القدم، إلا أنها إذا اتُّخذت رياضةً، وفي الحدود المعقولة، ومن أجل هدف بناء الجسم، فذلك إنما من المباح وليس من المحرام. ولكن أن توظف ملايين الدولارات والدنانير مع جوع البطون، مع بقاء شعوب كثيرة

(١) وصناعات بذخية ترفية تنشأ ويروج لها لتمتص جهود الملايين وأموال المجائعين والمحرومين مستغلة هذه التوجهات المتطرفة ومشجعة عليها تمثل ضرباً من اللعب بعيداً عن هدف الحياة. (منه حفظه الله).



بلا ماء صالح للشرب، مع فتك الأمراض الخطيرة بملايين من الناس،
ألا يُعد هذا لعباً؟!

٨- السباق مع الموضة في المنزل والركب واللباس والزينة وأمثالها.

٩- الإنفاق المتهور على الدعاية التجارية الكاذبة لاستغلال الزبائن.

ثم إنه يدخل في ما هو لعب مما يعده الكثير جداً الاشتغال بالتكاثر،
بالأشياء التي تفيض عن الحاجة كثيراً وتتجاوز الحد المعقول.

١٠- الولائم السفهية التي لا يراد بها إلا الشهرة الدنيوية الخاوية.

١١- البناء من أجل البناء، الفن من أجل الفن، حتى العلم من أجل
العلم، علم الفقه من أجل علم الفقه، علم الدين من أجل علم الدين،
عبث ولعب. ما لم يحمل طلب العلم، ما لم يحمل الفن، ما لم يحمل
البناء، ما لم تحمل التجارة، ما لم تحمل كل أعمالنا التي تتمتع بمظهر
الجد هادفية الحياة، وترتبط بما هو الهدف الحقيقي للحياة، فإنها
داخلة في معنى اللعب بالمعنى الدقيق والأصوب. الصلاة للرياء،
الجهاد للرياء، التبليغ للرياء، هذه الخطبة إذا جاءت رياءً، كل ذلك
لعب.

مفارقة مدهشة:

إنسان الأرض على قصوره وعبثيته، يرى من الضرورة لاستمرارية الحياة الاجتماعية وانتظامها بمقدار أن عليه سنّ القوانين، والمطالبة بتطبيقها، والإثابة والعقوبة عليها، وأن يفرّق بين مُحسنٍ في نظره ومسيء، ويأخذ بهذا النظر في كلِّ وزارة ودائرة. ثم يرى العبثية لوجوده وحياة نفسه، وأنه لا معنى لتطلعاته وأشواقه الروحية، ونظراته الأخروية، لا دنياً ولا آخرة. وكم هو عجيب من هذا الإنسان أن ينسب العبثية وغياب الهدف لعملية الخلق على يد العليم الخبير الحكيم! وتَعْجَبُ للإنسان كيف يَخْطُطُ لكل عمل صغير في حياته ويجعل لذلك هدفاً، ثم يفرِّغ حياته نفسها من الهدف، ويهمل أن يخطط لها على ضوءه.

وأركز قبل الختام على وعي وتذكر هذه الحقيقة، حقيقة أن الحضارة الإسلامية حضارة جد لا لعب، وأن كلَّ حضارة مادية هي في لُبِّها حضارة لعب لا جد، وذلك على ضوء ما تقدم.

الفصل الأول

حضارة الذِّكر وحضارة النسيان

- حضارة الذِّكر.
- لماذا الذِّكر؟.
- نصوص.
- من أهداف
- من مراتب الذِّكر.
- حضارة النسيان.
- نصوص.
- من أهداف
- من مراتب النسيان.

(١)

الفصل الأول:

[حضارتان : حضارة الذكر وحضارة النسيان]

الحديث الآن عن هذه الحضارة المباركة الراقية النابهة، وأنها حضارة الذكر والوعي واليقظة وحيوية الانتباه والتفطن، لاحضارة التخدير والإلهاء والإغواء وصرف النظر عن الحقائق الكبرى، وأمّهات القضايا، والاستغفال، والإغراق في النسيان.

ولا تكون الحضارة جادة ما لم تكن ذاكرة، والحضارة التي لا تملك وعي الحقائق الكبرى، ولا تعطي لأبنائها فرصة استحضارها فيكونون في غفلة عنها لا بد أن تكون لاهية مستغرقة في لعبها.

(١) خطبة الجمعة (١٤٨) ١٢ صفر ١٤٢٥هـ - ٢ إبريل ٢٠٠٤م



حضارتان حضارة من بناء الإيمان على خط الإسلام القويم وحضارة من بناء الجاهلية، الأولى حضارة الذكر، وحضور الوعي. والثانية حضارة النسيان، وغياب الوعي، والسبات.

ولقد كان ظلماً عظيماً أن قيل: بأن الدين أفيون الشعوب إلا أن يكون ديناً حرقه الهوى، ولوّنته أطماع الطغاة، وأعانهم على ذلك طلاب الدنيا ممن يقال عنهم خطأ وزوراً بأنهم (علماء). حضارتان تبرزهما نصوص الكتاب وتدعو لحضارة الهدى منهما، وتحذر من حضارة الضلال وهذا بعض تفصيل:

الذكر علم في مرحلة الاستمرار، والنسيان جهل في هذه المرحلة، فمن ذكر ما علم أبقى له ذكره علمه، ومن نسي ما علم عاد به نسيانه من بعد علمه الى جهل. قد يكون الانسان عالماً في الابتداء إلا أنه بعد أن ينسى يكون في حكم الجاهل لا ينفعه علمه.

[أنواعُ من الحقائق]

أتحدثُ أولاً عن أنواع من الحقائق:

[حقائق كبرى، وحقائق صغرى]

حقائق كبرى، وحقائق صغرى: وجود نملة في المنزل ووجود أسد؛ هذه حقيقة. وتلك حقيقة كنز من ذهب ومخزون من خزف؛ هذه حقيقة وتلك حقيقة. الشمس والشمعة؛ الشمس حقيقة والشمعة حقيقة. لكن هذه الحقائق على تفاوت هائل. لا يفزعك وجود نملة في المنزل كما يفزعك وجود أسد، ولا يكون الحساب لوجود النملة كما هو الحساب لوجود الأسد، يهملك من كنز الذهب ما لا يهملك من مخزون الخزف. وإذا انطفأت الشمس فالكارثة غير ما إذا انطفأت شمعة. هذه حقائق لكن من هذه الحقائق ما هو من الحقائق الكبرى الحسية، ومنها ما هو من حقائق حسية أصغر.

وفي المعنويات حقائق ومن حقائق المعنى ما هو أكبر من بعض آخر منها. وكبرى حقائق المعنى هي أكبر الحقائق على الإطلاق، وكل حقيقة كبرى خالقها أكبر منها، فلست تجد حقيقة أكبر من حقيقة الله ﷻ. تأتي حقائق الرسل، واليوم الآخر والملائكة إلا أن حقيقة هي الأكبر على الإطلاق، ليست هي إلا الله ﷻ.



[حقائق بعيدة، و حقائق قريبة]

هناك حقائق بعيدة، وأخرى قريبة:

أسدٌ في غابة قصية، وعقربٌ ينام مع أحدنا في الفراش. العقرب حقيقة ليست بمستوى حقيقة الأسد، ولكن قرب العقرب يعطي له أهمية ليست لأسد يعيش في غابة بعدها عنك مئات أو ألوف من الكيلومترات.

بستانٌ غني في بلد ناء، وشجرة مثمرة قريبة أي الحقيقتين أولى باهتمامك في المثل الأول؟! العقرب يفزعك بما لا يفزعك الأسد. وفي المثل الثاني تنال الشجرة من اهتمامك ما لا يناله البستان.

[حقائق دائمة وحقائق منقطعة]

أيضاً هناك حقائق دائمة وأخرى منقطعة؛ شرّاً أو خيراً من شأنه أن يكون عابراً يلفت نظرك، يشغل بالك ولكن شرّاً أو خيراً من شأنه أن يقيم ينسيك الشر الأول والخير الأول.

[حقائق حاضرة، وحقائق غائبة حاضرة]

حقائق حاضرة، وحقائق غائبة حاضرة. حقائق الحس حاضرة مشهودةٌ وحقائق الغيب حقائق غائبةٌ ولكنها قد تكون أكثر حضوراً من حقائق الحس. غائبةٌ بذاتها بكنهها، بمعناها ولكنها حاضرةٌ بفاعليتها وتأثيرها. الله حقيقةٌ لا تدركها العقول ولكن ليس شيءٌ أقرب من الإنسان ويحول بين المرء وقلبه كما هو الله ﷻ.

والحقائق التي تمتلك الفاعلية الكبيرة أو التامة بالنسبة للإنسان وليست على مرأى من عينه ولا في محيط حسّه لابد أن تنال اهتماماً أكبر عند العاقل لموقع تأثيرها المتميز، ولعروض الغفلة عنها.

فالله العظيم ﷻ أقرب الحقائق لنا تأثيراً وفاعليةً ولا وجود لنا ولا حياة للحظة وأقل من لحظة إلا به ومع ذلك نغفل عنه كثيراً، وننسى سلطانه علينا كثيراً لنقصٍ في نظافة القلب، وصفاء الروح، وزكاة النفس. الحقيقة ذات التأثير الكلي على الإنسان والغائبة عنه ، عليه دائماً أن يتذكرها، عليه دائماً أن يستحضر وجودها الهائل الذي لا يقاس، عليه دائماً أن يطلب رضاها، عليه دائماً أن يشغل قلبه بها؛ لأن انصراف هذا القلب لحظةً عمن يملكه وعمن



يقربه. إعراض القلب لحظة غفلته، لحظة تعني انفصاله عن مصدر الفيض بالنسبة إليه، عن مصدر العطاء، عن القادر المطلق ﷻ.

إن الحقائق الغيبية المؤثرة في وجودنا وحياتنا ومستقبلنا كثيراً وعلى رأسها الله ﷻ -المالك المطلق لكل مخلوق والمهيمن المطلق على كل شيء- يتطلب استحضارها والتعامل اللائق معها حضوراً واعياً دائماً، يعيشه القلب، صفاء وشفافية تتمتع بها الروح، لأن ما يمكن أن ترى به حقائق الغيب بدرجةٍ وأخرى إنما هي عين القلب وناظرة الروح.

[تنبيه!]

(تقدم الكلام في تنويع الحقائق مما يمس حياة الإنسان ويؤثر عليها وأنها تتفاوت عظماً وصغراً، بعداً وقرباً، دواماً وانقطاعاً، حضوراً وغيباً. ولا بد من التنبيه إلى أنه لا تساق بين كون الحقيقة حقيقة غيبية، وبين غيابها فاعلية، وكونها بعيدة على هذا المستوى فالله سبحانه أبعد الحقائق عنها ولا تدرك ذاته العقول على الإطلاق، وهو أنأى غيب من تناول الأفكار والأوهام والأخيلة، إلا أنه أقرب إلى المرء من حبل الوريد، وهو يحول بين المرء وقلبه. ولا تأثير لشيء

إلا بإذنه، ولا فعالية من غير فاعليته فهو أكثر الأشياء حضوراً وأصدقها فاعلية وتأثيراً، وناصية كل شيء بيده. ^(١)

[بين حضارتين]

وهناك حضارتان، حضارة تعمل ليلاً نهاراً على فصلك عن وعي الحقائق الكبرى وإلهائك عنها، على أن تشغلك بحدثٍ بسيطٍ دوني، وتستهلكك وتستغرقك وتنتهبك عن وعي ربك، وعن وعي ذاتك، وموقعك، ودورك، ونهايتك.

ونحن في الكثير نستغرق في أحداثٍ صغيرة، وفي علاقاتٍ محدودة وفي همومٍ حقيرة بحيث ننسى الله، وننسى ذواتنا، وننسى المصير الخطير، وننسى كل مهم. تستحوذ علينا مشاغل من مشاغل الأرض، وقد تستحوذ علينا أحداثٌ لا تمسُّ حياتنا بشيء، وقد تكبر في نفوسنا أحداثٌ لا تعود علينا بشيء، ونكون في متابعة دائمة لهذه الأحداث منصرفين ساهين لاهين عن يومنا، وعن غدنا، وعن ذواتنا، وعن ربنا المجليل ﷺ.

(١) مابين القوسين ورد كتنبيه في صدر الخطبة اللاحقة: (١٤٩).



الحضارة الإسلامية لا تلهيك بالصغير عن الكبير، وبالحقير عن العظيم وبما هو منقطع عما هو دائم، وبما هو بعيد عما هو قريب. الحضارة الإسلامية تعطي الاهتمام الأكبر للحقيقة الأكبر، والحضارة المادية الجانية تنفصل بنا وعياً، تنفصل بنا شعوراً، تنفصل باهتماماتنا، تنفصل بطموحاتنا، تنفصل باشتغالنا عن أكبر الحقائق وتنقلنا إلى أشياء تافهة، وإلى ما يشبه لعب الأطفال وذلك لغرض أن ننسى الله، وننسى أنفسنا.

والإنسان إذا نسي الله ﷻ قبل بغيره، وإذا نسي نفسه واحتقرها واستصغر قابليات النفس وما يمكن لهذه الذات أن تصل إليه من مستوى إنساني مخلوق فحينئذ -ومع استصغار النفس- يبيعها رخيصةً، ويقبل أن يعبد غير الله، وأن يسجد لغير الله. إنه حينئذ يرى في دينار الغني ثمناً لنفسه، ولا يرى نفسه أكبر من ذلك.

(١)

حقائق في المقدمة:

١. إذا كانت الحقائق تتفاوت وزناً وتأثيراً وفي عدد من الحيشيات الأخرى فهناك حقائق لا بد أن تقع في مقدمة اهتمام الإنسان وعنايته وتذكره، فبعد تفاوت الحقائق وزناً وتأثيراً وقرباً وحضوراً لا بد أن يأتي بعضها قبل بعض اهتماماً وعناية وتذكراً وتركيزاً.

٢. وما هو ميزان تقدم حقيقة على غيرها من الحقائق في اهتمام الإنسان، في عنايته، في تذكره، في تعامله؟

الحقيقة التي يأتي تأثيرها غير مشروط على الإطلاق، ولا يقع في طريق تأثيرها أي شيء، وجدت الأشياء، أو انتفت الأشياء، وافقت الأشياء أولم توافق على هذا التأثير فهو قائم. تلك الحقيقة التي لها تأثير عليك تأثيراً مباشراً غير مشروط بوجود شيء، غير مشروط بموافقة شيء هي أولى الحقائق حضوراً في قلبك، في وعيك، في سلوكك، في اهتمامك.

(١) خطبة الجمعة (١٤٩) ١٩ صفر ١٤٢٥هـ - ٩ أبريل ٢٠٠٤م



وكلما قربت الحقيقة وقلّت الوسائطُ بينها وبين التأثير كلما لزم أن تنال منك اهتماماً أكبر وعناية أكثر.

ودوام التأثير يختلف عن التأثير المنقطع. حقيقةٌ تمتلك تأثيراً منقطعاً عمره لحظةٌ وينتهي، غير حقيقةٍ يدوم تأثيرها في حياتك، في حاضرِك، وفي مصيرِك.

وإذا كانت الحقيقة لها انقطاعٌ في التأثير عليك ولكن مدة تأثيرها تطول وتطول، تبقى كثيراً، تمتد امتداداً بعيداً، كالأخرة التي تأثيرها منقطعُ الأول ولكنّه دائمُ الآخر؛ فهي حقيقةٌ حسابها كبير والاهتمام بها بالغ.

الأخرة لا تبدأ الآن، تمرّ عليك ستون سنة، تمرّ عليك مئة سنة، وكنتَ عدماً قبل هذه الحياة لكنّ الأخرة لما تبدأ لن تنقطع، فالأخرة بالقياس إلى الدنيا حقيقةٌ لا بدّ أن تنال اهتمامك بدرجةٍ أكبر، وأن تنال عنايتك بدرجةٍ أكثر.

أما الله تبارك وتعالى فهو الحقيقة الدائمة، الحقيقة الأبدية الأزلية، والله عزّ وجلّ هو الحقيقة التي لها تأثيرٌ على الكون كله بلا شرط وعلى الإطلاق، فلا اهتمام ولا تذكر ولا عناية أكثر من الاهتمام والعناية

والتذكر لله ﷻ، ولارعاية لأي حقيقة من الحقائق في التعامل كما هي الرعاية لحق الله ﷻ، والحساب لتأثير الله.

حقائق متميزة:

نذكر هنا طبقا للميزان المتقدم: وجود الله ووجدانيته، النفس الإنسانية، الرسالة، الإمامة، الآخرة، الدنيا، الشيطان سنن التاريخ، القوانين الكونية. هذه أمثلة، وأهم هذه الحقائق هي الله ﷻ.

حضارة الذكر:

١ - حضارة الذكر ماذا تعني؟

إذا سمينا حضارة من الحضارات بأنها حضارة الذكر فماذا يعني ذلك؟ يعني ذلك أن هناك حقائق معلومة وأن هناك حقائق مغروسة في النفس البشرية، هذه الحقائق المغروسة في النفس البشرية قد تذهب من وعي الإنسان، قد لا تمتلك الحضور الكافي في نفس الإنسان، وفي لحظة اتخاذه للقرار.

الحقائق المغروسة في الفطرة كحقيقة التوحيد حقائق لا تنمحي، ولا تنسى بالمعنى الدقيق للنسيان - بحيث لا يبقى لها واقع صورة في النفس - وإنما هذه الحقائق، النسيان المتعلق بها يعني غفلة الشعور عن الحساب لها لحظة اتخاذ القرار.

أن تقوم مشاعر، أن تمرّ خطرات، أن تتخذ قرارات لا تقوم على حساب دقيق لهذه الحقائق، هذا معنى النسيان الذي يعتري نفس الإنسان وواعية الإنسان بالنسبة لهذه الحقائق المغروسة في فطرته، المعجونة بكيونته.

وهناك حقائق يأتي علم مكتسب بها، ويمكن أن تتعرض لنسيان من هذا المستوى.

[المقصود من حضارة الذكر]

والمقصود من حضارة الذكر أنها حضارة تركز على حقائق كبرى ذات أهمية عالية وعلى حضورها والتعامل معها حسب الأهمية، ولا تهمل العمل أبداً على استحضار أي حقيقة في وعي الإنسان وذاكرته مما له تأثير عليه.

الإسلام لا يهرب بك عن مواجهة الحقائق، يوقفك تماماً أمام الحقيقة الكبرى المطلقة (الله) ﷻ. يوقفك أمام حقيقة دنياك، أمام حقيقة آخرتك، أمام حقيقة ذاتك، أمام حقيقة عدوك، أمام حقيقة صديقك. يوقفك أمام حقيقة وجودك، وأبعاد ذاتك. يوقفك أمام الحقائق الصغيرة، وأمام الحقائق الكبيرة؛ ليجعلك علمياً، ليجعلك واقعياً، ليجعلك على وعي تام بذاتك وبمحيطك وبكل علاقاتك.

الإسلام لا يستغفلك أبداً لحظة لينسيك واقعك أو لينسيك حاضرك أو مستقبلك.

فالإسلام نستطيع أن نطلق عليه بأنه حضارة الذكر، والحضارة التي تقوم على الإسلام هي حضارة الذكر.



٢- صناعة رحمانية:

حضارة الذكر صناعةٌ رحمانيةٌ في قبال حضارة النسيان وهي صناعةٌ شيطانية.

حضارة الذكر صناعةٌ رحمانيةٌ حيث أرسل الله ﷻ الرسل، أنزل الكتب، بث الآيات الكونية، آيات الأنفس، أقام دروس الحياة. جعل الأحوال متقلبةً بقدرته، جعل الإنسان لا يستقرّ على خاطرةٍ، جعله يتنقل في مشاعره من حزن إلى فرح، من غم وكرب إلى أنس، من يأسٍ إلى أمل، بحيث يتبين له تماماً أنه لا يملك ذاته.

كل ما جاء من عند الله ﷻ من كتب ورسل وآيات وما بثّ من دروسٍ في هذه الحياة هو من أجل الإيقاظ، هو من أجل الذكر، هو من أجل كشف الحقائق التي يمكن أن تخدم مسيرة الإنسان، ويمكن أن يُخطط لمستقبله في ضوءها التخطيط الناجح.

٣- لماذا الذكر؟

الرشد والحكمة، الأمن والسلامة، الرقي والتقدم والنجاح كل ذلك يعتمد على أن تنكشف لنا الحقائق، وأن نتعامل مع الحقائق بأوزانها ومقاديرها، وأن نحسن التقدير للحقائق، وأن يأتي هذا التقدير منا

التقدير الدقيق لها في حال اتخاذ القرار، بناء المشاعر، بناء الأفكار، في إطار الحياة الفردية، وفي إطار الحياة الاجتماعية.

حين لا نقف مع الحقائق نتعامل مع الخيال، نتعامل مع الوهم، وستتحول حياتنا حينئذٍ إلى وهم وخيال، وسنبني قصورا من الوهم والخيال، وكل قصور الوهم والخيال لا تؤدي خدمة للإنسان ولا تسمن من جوع.

نحن دائماً نحتاج إلى أن نعي ذواتنا، إلى أن نعي واقعنا، إلى أن نعي حاضرنا، إلى أن نعي مستقبلنا، إلى أن نرى الكبير كبيراً، إلى أن نرى الصغير صغيراً، إلى أن نرى المنقطع منقطعاً، إلى أن نرى الدائم دائماً. دائماً نحتاج إلى التعرف على الحقائق بأوزانها وأحجامها من أجل أن يأتي قرارنا، ومن أجل أن يأتي تحركنا منسجماً مع الواقع. وكل تحرك وكل قرار لا ينسجم مع حقائق الواقع، ومع شواهد الواقع سيكون تحركاً ضائعاً وفي السراب.

٤- نصوص عامة:

نصوص عامة تؤكد على أن الإسلام يقيم حضارة الذكر، هذا كتاب الله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) يذكرك بالله، يذكرك

(١) سورة ص: ١.



بنفسك، يذكرك بالحق، يذكرك بالباطل، يذكرك بالآخرة وحجمها، يذكرك بالدنيا وحجمها، يذكرك بصديقك، يذكرك بعدوك يذكرك بحقائق جمّة كلها تحتاجها في حياتك. وعن القرآن الكريم كذلك : ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(١).

وعن الرسول الأعظم ﷺ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(٢) دور الرسول أن يذكرك، أن يوقفك على دقائق ذاتك، على متطلبات ذاتك، على أبعاد ذاتك، على واقع المسيرة الاجتماعية، وما ينبغي أن تكون عليه المسيرة الاجتماعية، وما ينبغي لك أن تعطيه من اهتمام لدنياك، وما ينبغي أن تعطيه من اهتمام لآخرتك. ما ينبغي أن تكون عليه في تعاملك مع الله، وما ينبغي أن تكون عليه في تعاملك مع أعداء الله.

القرآن الكريم يقدم لك خارطة الطريق بكل وضوح، وهو يكشف لك عن حقائق الذات، عن أبعاد الفطرة، عن ما تحدثك به نفسك في الداخل. هناك صوتٌ مطمور، تطمره الجاهلية فيك، هناك نورٌ في داخلك، تطفئه الجاهلية، والقرآن يجلي لك عن هذا النور، ويرفع

(١) سورة القلم: ٥٢.

(٢) سورة الغاشية: ٢١.

كلّ الحواجز أمام الصوت الفطري، أمام صوت الخلقة من صنع الله ﷻ في داخل ذاتك ليحبّب لك الله، ويبغض لك الشيطان.

هذا هو واقع الرسالة الإسلامية والحضارة من صياغتها قرآنٌ مذكّر ورسولٌ مذكّر؛ لا يتعاملان مع الإنسان بالوهم والخيال ولا ينسيانه حقائق الواقع ولا يستغفلانه أو يلهيانه عن ربّه ونفسه وعن كلّ الحقائق المؤثرة في حاضره ومستقبله.

ولو فتحنا أعيننا لوجدنا حضارة الجاهلية تتجه الاتجاه المعاكس في كلّ ذلك، تقوم على أن تنسينا، على أن تستغفلنا، على أن تلهينا عن قيمة ذواتنا، عن ضرورة العلاقة بالله ﷻ، عن ما ينفع، عن ما يضر.

٥- نصوص خاصة:

هذه النصوص تركز على مذكورات معينة، على حقائق كبرى مهمة ينبغي أن يكون لها الحضور الدائم في نفس الإنسان وفي وعيه تركز على التذكير على حقائق معينة لها أولويتها وانعكاسها الهائل على منهج الإنسان وحياته ونوع هدفه. [تُركّز على أهمية الذكر والاستحضار الدائم الواعي لموضوعات مهمة تتوقف على استحضارها عند الإنسان استقامة الحياة، وسلامة الأوضاع، وبلوغ الغاية، ونجح المصير.^(١)]

أ- الله ﷻ:

آيات كثر، وحديث كثير كثير جداً كل ذلك يركّز على ذكر الله ﷻ. حياة لا تقوم على ذكر الله حياة مَوَاتٍ. الحياة الراقية، الحياة السعيدة، الحياة التقدمية، الحياة الواقعية تنطلق من قلبٍ يمتلك وعياً،

(١) من الخطبة: ١٥٠.

يملك حضوراً للحقائق، ينكشف له الواقع. القلب الموات، القلب الأعمى، القلب الناسي، القلب اللاهي الساهي لا يمكن أن ينشئ حياة راقية، ولا يمكن أن ينشئ حياة واعية، ولا يمكن أن تكون الحياة المنطلقة من محتوى هذا القلب تمتلك انسجاماً مع خط الكون وخط الواقع والحقائق الكبرى التي تمتلك ناصية هذا الكون وأولها الله ﷻ وهو مصدر الفاعلية لكل حقيقة أخرى.

أذكر أمثلة فقط:

- ١- ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾^(١). هؤلاء هم النفر النموذجيون، هذا هو النموذج الإنساني الراقى الذي يتحدث عنه القرآن ... ذكر الله يستغرق حياتهم، لا يغيب لحظة عن وعيهم وعن قلبهم.
- ٢- ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾^(٢).
- ٣- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران: ١٩١.

(٢) سورة آل عمران: ٤١.

(٣) سورة طه: ١٢٤.



٤- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ «وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى»^(١).

(٢)

ب- نعم الله:

الشعور بجميل الغير يستعبد الحرّ، ولا تكون العبودية شرفاً إلا بأن تكون لله، والإسلام يريد لهذا الإنسان أن ينقذه من كل عبودية إلا عبودية لله تصنع العبد حراً قوياً مستقيماً صالحاً منتجاً طاهراً زكياً نافعاً في الأرض مصلحاً.

إذا ذكرت الله، كماله، جماله، جلاله كان عليك أن تذكر نعم الله حتى لا يستبد بك شعور مغالط يقف بك عند نعمة تأتي عن طريق الأسباب فتسند هذه النعمة لأي سبب من الأسباب. إن كل نعمة مرجعها الله سبحانه، فإذا كان عليك أن تشعر بجميل لمنعم، فعليك أن تشعر بجميل الله أولاً وبالذات.

(١) سورة الأعلى: ١٤-١٥.

(٢) خطبة الجمعة (١٥٠) ٢٦ صفر ١٤٢٥هـ - ١٦ أبريل ٢٠٠٤م

من نصوص هذا العنوان:

١- ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾^(١) نعمة المنهج الإلهي المنقذ الذي لا بديل عنه أبداً على طريق النجاح، فلتفتش الدنيا، فلتجتمع كل الفلاسفة، فليجتمع كل الدستوريين والقانونيين فإنهم لن يتأتى لهم أن يعطوا للإنسان منهجاً منقذاً يصنعه كما يصنعه المنهج الإلهي.

خسئت الأرض، وخسئ كل أهل الأرض، وخسئ كل علماء الأرض أن ينتجوا منهجاً كما هو المنهج الإلهي. ولولا أن تنزلت مناهج الله على الإنسان في أرضه على يد رسل الله ﷺ لضلت الأرض أكثر من هذا الضلال، ولتحولت إلى غاب، ولما سلم نتائج الإنسان ولا الإنسان ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾.

(١) سورة البقرة: ٢٣١.

٢- ... ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾^(١) فإن نعم الله للبناء، نعم الله للإصلاح، نعم الله لصناعة الإنسان، لصناعة الحياة العادلة، حياة السعادة والرخاء والأمن والاطمئنان والإيمان.

٣- ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾^(٢) وتعجز جهود الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين مع ما أوتوا من حكمة، ومع ما هم عليه من تميز في الفكر، وفي الإرادة، وفي الصفات النفسية أن يوحدوا صفوف الناس، وأن يجعلوهم كتلة واحدة في اتجاه الهدف الصالح إلا بتوفيق من الله ﷻ، وبإمداد دائم من عنده.

ج- الكتب السماوية:

يريدك القرآن أن تنشّد ذاكرا دائما إلى الكتب السماوية، إلى كتب تنزلت من الله تحمل منهج هذا الإنسان وخارطة الحياة، والطريق لصناعتك وإلى جنتك، وإلى صناعة حياة تهنأ بها هنا في الدنيا. وحين تنفصل بوعيك، وتنفصل بذاكرتك بإضلال من الإعلام إلى مناهج أخرى غير المنهج الذي تنزلت به كتب الله، حين تتجه إلى

(١) سورة الاعراف: ٧٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٣.

أخلاقية أخرى غير الأخلاقية التي تنزلت بها كتب الله، حين يبني لك فكرك، حين يبني لك شعورك، حين يبني لك سلوكك منهج غير المنهج الذي تنزلت به كتب الله فأنت لست على الطريق، لست على طريق غايتك، لست على طريق كمالك، لست على طريق سعادة دنيا، لست على طريق سعادة آخرة أبداً. فوجب دائماً أن يكون ذكرك منشداً إلى قرآنك، إلى سنة نبيك.

تقرأ كثيراً في القوانين، وتقرأ كثيراً عن نظريات الغربيين، وتتلفّت إلى كل خبر تحمله صحيفة عن قانوني أو دستوري ويغيب وعيك، وتغيب ذاكرتك عن منهج الله، عن كتابه الكريم، وهكذا يريدك المغرضون، وهكذا يريدك أعداء الحضارة الإسلامية.

١- ﴿سَنَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾^(١) هذه الآية تخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة: ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ ليس أمراً، وإنما نقول للرسول ﷺ نضمن لك أن لا تنسى، سنوفر لك حفظ القرآن، سنبقيك ذاكرة دائماً، سنبقيك منشداً بوعيك وشعورك إلى ما تنزل عليك، وإلى ما أقرأناك من كتاب الله وآياته، وإلا ضللت، لو انفصل وعيك يا رسول الله عما تنزل عليك من كتاب الله، لو انفصل شعورك

(١) سورة الأعلى: ٦. تم تقديم هذه الآية وقد أتت في الخطبة بعد بضع كلمات بعد كلمة (مباشرة).

لحظة عما أقرأت من كتاب الله لما كنت النبي المعصوم، لما كنت الإنسان الأول من بين الناس.

﴿سَنُقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ليس المهم أن نقرأك فقط، بل لابد من إضافة شيء آخر هو أن لا تنسى ما نقرأك. فليس المهم أن نتعلم القرآن فقط، ونحمل مفاهيمه بينما ننساها في مقام الشعور، بينما ننساها في مقام العمل، بينما ننساها في مقام التخطيط، بينما ننساها في مقام المواجهة مع أنفسنا، المواجهة مع أصدقائنا، المواجهة مع أعدائنا. ﴿سَنُقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾.

٢- ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾^(١) وهي آية تقدمت تحت العنوان الأول، وتأتي تحت هذا العنوان.

٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢) لابد من احتضان كتب السماء الصافية، لابد من التعامل معها التعامل الجدي، لابد من أخذها بقوة فكرياً وشعوراً وعملاً، ولابد أن تقيم الأمم على ذكر الكتب السماوية، على ما فيها من عقيدة، ما فيها من رؤى، ما فيها

(١) سورة البقرة: ٢٣١.

(٢) سورة البقرة: ٦٣.

من مفاهيم، ما فيها من أخلاق، ما فيها من تعاليم، ما فيها من تشريعات، ما فيها من تخطيط للحياة ولصناعة الإنسان الراقى الفذ.

د- [الآخرة]:

موضوع آخر تركز التربية الإسلامية على ذكره، ويحتفل به القرآن احتفالاً كبيراً، ويأخذ مساحةً كبيرةً من القرآن الكريم في تركيز مكثف على هذا الموضوع لأهميته في بناء وعيك، في بناء مشاعرك، في صناعة حياتك، في تقويم ذاتك، في تقويم مجتمعك، في تخريج أمّتك أمة ناجحة، أمة وسطاً رائدة صناعة.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾^(١) هبة كبيرة، صفة خالصة، صفة عليا، يتمتع بها الأنبياء، يمتاز بها المرسلون، تجعلهم أقوى الناس، تجعلهم أهدى الناس، تجعلهم أكثر الناس صبراً على الأذى، تجعلهم الأكثر انضباطاً، تجعلهم الأكثر قدرة على مقاومة مغريات الدنيا، على مقاومة وعيد من توعد، وعلى مقاومة وعد من وعد.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ الرأس الذي يزخر بذكر الآخرة، القلب الذي يحويه ذكر الآخرة، يصنع رجلاً قوياً، يصنع

(١) سورة ص: ٤٦.



امراً قوياً لا يهزمان أمام الشهوات، ولا يهزمان أمام الأزمات، ولا يقعان في أزمات نفسية لحفة وزن هذه الدنيا، ولثقل ما ينظرون إليه من نعيم الآخرة وعذابها.

هـ - [الإنسان]:

موضوع آخر يهتم به القرآن ولا بد أن تكون على ذكر دائماً به هو أنت أيها الإنسان، قيمتك، محتواك، أنت اللحم والعظم والشحم؟ أنت هذه الكتلة التي تبديد وتنتهي وتتبعثر؟ أنا وأنت هذا الجسم الذي بدأ نطفة وينتهي جيفة وهو بين النقطتين يحمل في داخله العذرة؟ أم نحن غير ذلك؟

الإنسان محل اهتمام القرآن:

- ١- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ...﴾^(١)
 إن نسيتم أنفسكم سقطكم، إن تصورتكم ما يريدكم أعداء الله والكفرة في الأرض من أنكم حيوانات أبناء القردة، سقطتم عن مقامكم الكبير، وإنسانيتكم الضخمة التي وهبها الله لكم أيها الناس.

(١) سورة الحشر: ١٩.

تهديد من الله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ...﴾ نعمة ذكر النفس، نعمة ذكر قيمة الذات، نعمة النظر إلى إمكانات الذات، إلى المستقبل الذي ينتظر الذات، إلى هذا الإنسان الذي يستطيع أن يصل إلى مقام يفوق به الملائكة، ذكر مهم. مهم أن تنظر إليك بحجمك الحقيقي، وحجمك الحقيقي كبير عند الله، صغير عند سفلة الناس، وصناع الحضارة المادية.

٢- ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مْتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ «أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً»^(١) عليك أن تتذكر البداية، عليك أن تحمل شعورين: شعور قيمة ذاتك الكبرى الموهوبة لك من الله، وشعور الاستصغار لذاتك في ذاتك مفصولة عن مدد الله؛ فأنت صفر وأنت عدم، ثم أنت بداية وضيعة، بعد أن كنت



عدماً صرت البداية الوضيعة. وما صيرك وما سواك رجلاً سويّاً، وامراًً سويّاً، وإنساناً تزخر بكل هذه الإمكانيات إلا الله.

(١)

و- سنن التاريخ:

فنحن نتحدث عن موضوعات مهمة، ركّز عليها الكتاب الكريم بخصوصها لتكون محل الذكر عند الإنسان لمحوريتها المركزية في حركته.

١- ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾.

حضارة تتأسس على مخالفة الله هي حضارة تحمل جرثومة فنائها، فقد يقوم البناء مشيداً، وقد يشتدّ عود الأمة، وتكبر في نظر نفسها والآخرين، وتصل إلى حدّ العتوّ، وهي ما دامت ظالمة، ما دامت

(١) خطبة الجمعة (١٥١) ٣ ربيع الأول ١٤٢٥هـ - ٢٣ إبريل ٢٠٠٤م

مخالفةً لأمر الله، خارجةً على خطّ الكون، خطّ التسبيح والحمد والتنزيه لله فإنها لابد أن تكون إلى انتكاس.

قانونٌ إلهيٌّ ثابت، يتمثل في أن الظلم يهدم البناء، ولنعرف أن الخطّ المخالف لخطّ الله خطّ ظالم، وليس من ظلمٍ أكبر من الخروج على أمر الله ونهيه.

لا تفرح لأمة تبني وتشيد، وتمتلك صناعةً ضخمةً، وتتقدم زراعةً وسياسةً واقتصاداً واجتماعاً، ولكن إذا كانت هذه الأمة على غير طريق الله، فإن ضربةً قاسيةً قاصمةً قاضيةً تنتظرها، وتقف لها بالمرصاد.

ما لم تلتفت الأمة إلى سنن التاريخ وكيف تنشأ الأمم، كيف تقوم الدول، وكيف تسقط، ما هي القوانين الاجتماعية التي تحكم حركة الإنسان، فهي أمةٌ ساذجةٌ، وهي أمةٌ غافلةٌ، والغافل إن يربح قليلاً يخسر كثيراً، ولا يمكن له أن يستمرّ على طريق النجاح.

تتحدث الآية الكريمة عن قرنٍ وأمةٍ مكنّ لهم ما لم يُمكن لكم، وأُرسلت عليهم السماءُ مدراراً، ومن خيرٍ كثيرٍ أن كانت الأنهار تجري من تحتهم، ولكن الله عزّ وجلّ أهلّكهم بسبب ذنوبهم، فالأمة المذنبة لابد أن يهلكها الذنب، فالذنوب علّةٌ كافيةٌ لهلاك الأمم.



وهناك ذنبٌ فرديٌّ قد يصل إلى الألف، وقد يصل إلى الألفين، لكن هناك ذنباً آخر هو ذنبٌ اجتماعيٌّ، حين يتحوّل خطّ المجتمع إلى خطّ مخالفٍ لخطّ الله؛ فحين يأخذ مجرى التاريخ على يد أمةٍ مجرى غير المجرى الذي حدّده الله ﷻ وسنّه لهذا الإنسان فحينئذٍ نكون أمام ظلمٍ اجتماعيٍّ، أمام ظلمٍ أمةٍ، ولذنب الأفراد عقوبة، ولذنب الأمم عقوبة. والأمم لا تؤخذ بذنوب بعض الأفراد المستترين عليها، والمخالفات الجزئية لهم حين تكون محلّ الإنكار، ولكن تؤخذ بذنب اجتماعيٍّ، وبخطّ عامٍ تحتضنه الأمة على ما فيه من انحرافٍ عن خطّ الله، ولا يكون منكرونٌ يشكلون خطأ عاماً، ولا تكون مواجهة.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾^(١) فالآية الكريمة الثانية من نسق الآية الأولى تتحدث عن سنّة تاريخية تربط بين هلاك الأمم وبين ظلمها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(٢) إذا تغيرت أنفس القوم من حسنٍ إلى سيئ كانوا على طريق الهلاك، وإذا تغيرت أنفسهم من سيئ إلى حسن كانوا على طريق النجاة. حركة

(١) سورة القصص: ٥٩.

(٢) سورة الرعد: ١١.

التغيير تبدأ من الداخل، وحركة التغيير إما أن تكون في الاتجاه السلبي، وإما أن تكون في الاتجاه الإيجابي. فالمجتمعات والحضارات تمتلك إرادتها الإنسانية، وهي الإرادة الموهوبة لهذا الإنسان من الله ﷻ، ولكن هذه الإرادة ليست طليقة ولا حرة على الإطلاق؛ تُقيدها قوانين كونية، وتقيدها قوانين في المساحة الاجتماعية.

المساحة الاجتماعية لها قوانينها، كما أن للمساحة التكوينية قوانينها، وحركة الإنسان عليها دائماً أن تحاسب لهذه القوانين، وأن تصوغ ذاتها في ظل هذه القوانين، وهي لا تستطيع أن تتفلات من قانون إلا بحماية من قانون آخر، ولا يمكن لطاغية فرد، ولا يمكن لطاغية أمة أن تتمرد على القوانين، وأن تكسر قانوناً واحداً من قوانين الله في المساحة التكوينية وفي المساحة الاجتماعية ما لم تلجأ إلى الله بالتفويض بسبب من الأسباب، ويقانون من القوانين التي سنتها الإرادة الإلهية المتعالية.

ز- رموز الخير والشر:

من بين الموضوعات المهمة التي يُذكرنا القرآن الكريم بها، ويُركّز عليها تركيزاً خاصاً، هو موضوع رموز الخير والشر في الأرض.



فيضع عينك فرداً كنت أو مجتمعاً، أو أمةً على رموز الخير، دورها ونهايتها، وعلى رموز الشر دورها ونهايتها، ويشدك إلى قدوات الخير، ويحذرك من قدوات الشر، ويضرب لك أمثلةً من رجال في التاريخ على هذا الخط وعلى ذلك الخط، وما كان لأولئك الرجال من دور شرٍّ أو خير وما جاء على أيديهم من هدمٍ أو بناءٍ لتجد مصارع الظالمين، ولتجد النهايات السيئة المخزية لمن خالفوا الله، ولتجد المستويات المحلقة، والصمود الكبير، والهداية الرشيدة على أيدي الصالحين.

وهذا نداءً من الكتاب الكريم للأمم أن تحذو حذو القدوات الصالحة، وأن تعتبر بالأمم السالفة.

١- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾^(١)
لابد من مصلحين، لابد من رجالات هداية، لابد من رجالات خير، لابد من صنّاع حضارة رشيدة، لابد من قادة هدى ينتهون بالأمم إلى الجنة، إلى رضوان الله ﷻ، وهذا مثلٌ كبيرٌ من أولئك الرجال الذين صنعوا تاريخاً إنسانياً رشيداً مهدياً.

(١) سورة مريم: ٤١.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ...﴾ يذكرك بإبراهيم، ويذكر الأمم بعد الأمم، والأجيال بعد الأجيال بهذا النموذج الإنساني الرائع الصامد الصاعد إلى الله تبارك وتعالى. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(١) تخاطبنا الآية الكريمة، أينكم من النماذج الإنسانية الرائعة؟! أينكم من الإنسان الذي يسابق الملائكة وقد يفوق؟! أينكم من رجال صالحين صنعوا الحياة رُشدًا، وصنعوها خيرًا، وصنعوها محبةً وسلامًا، وقاوموا الظلم والطغيان والفحشاء، وقاوموا كلَّ سلوكٍ سيئٍ ليستقيموا بالأمم على الصراط الصاعد إلى الله ﷻ؟!!

ذلك مثال، ذلك خط. وخط آخر له رجاله، وله أئمته، وله قدواته، وله أمثلته :

- ٢- ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾^(٢).
 ٣- ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾^(٣) «فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ»^(٣).

(١) سورة الأنبياء: ٥١.

(٢) سورة طه: ٧٩.

(٣) سورة البروج: ١٧-١٨.

وأنت تجدُ في القرآن ذكراً لقارون، وتجد ذكراً لنمرود، وتجد ذكراً
لأمثلة سيئة أخرى من رجالٍ ومن نساء.

ح- الدنيا:

الدنيا موضوعٌ آخر عليك أن تكون على ذكر منه لأهميته، ولأنك
ابن الدنيا أولاً قبل أن تكون ابن الآخرة.

الدنيا تحتضنك سنين، وهذه السنين التي تحتضنك الدنيا فيها هي
التي تحدد مصيرك، وهي التي ترسم خطَّ مستقبلك، فعليك أن تعرف
دنياك، وعليك أن تتعامل مع الدنيا بحجمها.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾^(١) - الآخرة هي الهدف،
الآخرة هي الغاية، كل ما آتاك الله من عقل، من سمع، من بصر، من
نعم أخرى وظفها في سبيل آخرتك لأنها الهدف، لأنها الحيوان، لأنها
الحياة الحقيقية - ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(٢) وكيف لا
ننسى نصيبنا من الدنيا؟

(١) سورة القصص: ٧٧.

(٢) سورة القصص: ٧٧.

[معنيان للآية الكريمة]:

[المعنى الأول]

إما أن الآية الكريمة لا تريد لنا أن نهمل الدنيا إهمالاً تاماً فنموت، وتتجمد حركة الحياة على أيدينا من حيث كوننا مؤمنين، فتقول لنا الإيمان لا ينافي أن نُشيع الحياة في الأرض، أن نُعمر، أن نُشيد، أن نبني، أن نسابق الأمم الأخرى نشاطاً وحيوية وقوة وصناعة واختراعاً وابتكاراً. لكن ليكون كل ذلك نعمة علينا أن نبتغي فيه الدار الآخرة.

نتحرك في هذه الحياة الدنيا لا بهدفها، وإنما بهدف الآخرة. أنت تدرس لتنتج، لتعمل عملاً متقناً. أنت تحيي في الحياة الدنيا لتنتهي إلى آخرة رابحة. الحياة ربمها قليل، وزائف، وعند التأمل ساعات الراحة والسرور في الحياة لا نجدها إلا قليلة.

[المعنى الثاني]

وإما أن الآية الكريمة ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ تقول لنا إن نصيبك من الدنيا ما أوصلك إلى الآخرة. أما الحركة في الحياة فطبعنا يدفعنا إليها إلى أن نطلب الرزق، إلى أن نطلب الدواء، إلى أن نطلب المركب الحسن. فينا من الدوافع ما يكفي لأن يُحرّكنا الحركة



المنتجة في الحياة، لكنّ دوافع الآخرة على وجودها مُحاربة ومواجهة من إعلام مُضلل، من أوضاع زائفة، من صناعة حضارية على يد الطغاة والظالمين تحرف النظر عن الآخرة، وتنسينا الله ﷻ.

لذلك كان ما يتوجب أن نُذكرَ به هو الآخرة لا الدنيا. دوافع الدنيا قوية، وفعّالة، ومُتلمّظة^(١)، ومجنونة لا تحتاج إلى تنبيه إلا في بعض الحالات التي قد تسودُ فيها موجات من التصوّف المنحرف، فهنا تأتي الآيات الكريمة، وتأتي الأحاديث والمواقف الحاسمة من أئمة الهدى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لتعيد الدّقة إلى المسار الصحيح، فلا تصوّف في الإسلام يقتلُ الحياة، ويهربُ بالإنسان عن حركتها.

فالمعنى الثاني هو أن الآية الكريمة تقول لنا: التفتوا إلى أن نصيبكم من الدنيا ليس هذه اللقمة، وليس هذه الكسوة. هذه الكسوة وهذه

(١) ["والتلمّظ: أن يُخرج الإنسانُ لسانَه فيمسح به شفتيه؛ تلمّظَ تلمّظاً." جمهرة اللغة ؛ ج ٢ ؛ ص ٩٣٤. "يقال: تَلَمَّظَتِ الحَيَّةُ، إذا أخرجَتُ لسانها كَتَلَمَّظَ الأكل." الصحاح ؛ ج ٣ ؛ ص ١١٧٩]

ابن دريد، محمد بن حسن، جمهرة اللغة - بيروت، چاپ: اول.
جوهري، اسماعيل بن حماد، الصحاح - بيروت، چاپ: اول.

اللقمة، وهذا المركب، وهذه الراحة الوقتية، كل ذلك جعل لكم وسائل لتبنوا ذواتكم بناءً إلهياً، لتصنعوها الصنع الإلهي الكريم.

فنصيبكم الحقيقي من الدنيا ليس ما تأكلون وليس ما تشربون وتلبسون، إنما نصيبكم الحقيقي من الدنيا البناء لذواتكم، لعقولكم، لقلوبكم، لإرادتكم، لأنفسكم على خط الله ﷻ لتلتقوا على هذا الخط بالطف الله، ورحمته وكراماته.

﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١) نعم الدنيا للصّلاح والإصلاح والبناء. وليست نعم الدنيا في يد الإنسان ليفسد بها الحياة، وليُضل بها، ويُدمر، ويهدم النفوس.

(١) سورة القصص: ٧٧.



(١)

ط - [الشيطان]:

من بين الموضوعات التي تتدخل كثيراً في صياغة حياة الإنسان، وتستقيم بها على الدرب، أو تنحرف بها عن الجادة، وتنتهي بهذا الإنسان إلى جنة الخلد أو إلى قعر الجحيم هذا الموضوع، وهو:

الشيطان: الشيطان كثيراً ما يكون قريناً للإنسان، وهو قرين سوء، وهو أساس جبهة الضلال، وله جندٌ كثير، وجبهته عريضة، ولا تكف عن حرب مع هذا الإنسان وكيد به ليلاً ولا نهاراً.

الآيات الكريمة والنصوص الشريفة عامة تثير في الإنسان دائماً عداوة هذا العدو، وتضع الشيطان بكيدة ووسوسته وتأمره على النفس الإنسانية حاضراً في رؤية الإنسان، حاضراً في شعوره من أجل أن يحترس، من أجل أن يدخل في مواجهة جادة وحازمة مع هذا العدو الكبير.

(١) خطبة الجمعة (١٥٢) ١٠ ربيع الأول ١٤٢٥هـ - ٣٠ أبريل ٢٠٠٤م

١- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١) كيف تكون موقفاً من عدو جارٍ، يملك الكثير من وسائل الكيد، ومن وسائل الإضرار؟ أراك لا تهدأ لك عينٌ وأنت تعيش جاراً لذلك العدو، وأراك لا تدع وسيلةً من وسائل الاحتياط والاحتراز إلا وطلبتها من أجل أن تواجه بها كيده.

الشيطان يصل من العبد إلى مداخل قلبه، إلى تلافيف نفسه، إلى مشاعره وخواطره، فهو أقرب عدو للإنسان بعد نفسه. وهذا العدو إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

أنت تلتفت حول قيادة لتضعك على طريق الربح، لتضعك على طريق الهداية، لتصل بك إلى نتيجة طيبة، وهذه القيادة من بين قيادات السوء، وأكبر قيادات السوء تجمع من الناس أكبر عدد ممكن لتلقي بهم خطباً في جهنم، ولتنتهي بهم حجارةً من أحجار النار.

قيادة تملك من وسائل الإغراء، ومن وسائل الاستقطاب، ومن أساليب الإيقاع ما لا تمتلكه قيادة أخرى وهي أضر القيادات، وأنتم ترون مثلاً لهذه القيادة من قيادات الشر في الأرض؛ تلك القيادات

(١) سورة فاطر: ٦.



التي تمتلك من وسائل الإعلام المضلل ما يُوقع من تستعديه في شبّاكها وهو يشعر بلذّة الاتّباع، وبطمأنينة الاتّباع، ويُغري أيّما إغراء، من القيادة التي تكيد به، وتستلبه. كم من دول، كم من أفراد علماء وعظماء يقعون أتباعاً ذليلين وراء قيادات عالمية طاغوتية تسلبهم العزّة والكرامة وتنتهي بهم إلى غضب الله؟!

هذه القيادات هي نموذجٌ صغيرٌ من قيادة الشيطان الرجيم الذي يمتلك من الوسائل ما تمثّل وسائل الإعلام المضلّ ووسائل الإغراء بيد البشر نسبة بسيطة مما يملك.

٢- ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(١)
 الشيطانُ غرورٌ، [أي] كثير التّغريّر، كثيراً ما تكون له فرائس، كثيراً ما يكون له مغررٌ بهم، وكثيراً ما يقع المغرّرون بسببه فريسة له. ماهرٌ، حاذق، قادر على التّغريّر، على الإيقاع، على الإلهاء، على أن يُفقدك تفكيرك، يُفقدك شعورك بذاتك، على أن يفقدك الرّؤية الصحيحة لما عليه واقع الدّنيا، لما عليه واقع الآخرة. يستطيع وبكل أسلوبٍ ساحرٍ أن يحوّل الصغير في نظرك إلى كبير، ويحوّل الكبير في

(١) سورة فاطر: ٥.

نظرك إلى صغير، أن يحول القبيح إلى جميل، أن يحول الجميل إلى قبيح، وهكذا يفعل المجرمون في الأرض من أتباع الشيطان.

من مراتب الذكر:

الذكر ليس على مرتبة واحدة. وكما أن النسيان مراتب، فيمكن أن يكون النسيان لله، وللآخرة، وللذات نسياناً وقتياً، نسياناً جزئياً، وفي مساحة محدودة مما ينبغي أن يذكر، ويمكن أن يكون النسيان مستوعباً إلى حد أن يتحول بصاحبه إلى جهل كامل، كذلك هو الذكر على مراتب، فمن الذكر مرتبة عالية، ومنه ما هو مرتبة أعلى. فعن الصادق عليه السلام :

«الذِّكْرُ ذِكْرَانِ ذِكْرٌ خَالِصٌ يُوَافِقُهُ الْقَلْبُ وَذِكْرٌ صَارِفٌ يَنْفِي ذِكْرَ غَيْرِهِ»^(١).

هناك لقلقة لسان لا تعدّ ذكراً، وهناك درجة من الذكر تنفي ذكر غير الله، ولا تمثل ذكراً حقيقياً لله، ولكن تمثل نوعاً من الاتجاه الإجمالي الضبابي الغائم لله ﷻ؛ هذا الذكر وإن لم يمثل ذكراً حقيقياً لله ﷻ إلا أنه يصرف عن ذكر غيره، وانصراف القلب عن ذكر غير

(١) بحار الأنوار: ج ٩٠: ص ١٥٩.



الله فيه درجة من النجاة ويبقي القلب مستعداً بدرجة أكبر لذكر الله ﷻ.

أما إذا حلّ ذكر غير الله محلّ ذكر الله في القلب فهنا الخطر الشديد.

أما الذكر الآخر فهو ذكر يوافقه القلب، يعيشه القلب، يحيا به القلب، يرى به القلب الرؤية الحقيقية، القلب فيه موصولٌ بالله ﷻ، يتغذى ويتربى، ويتزكى على ذكر الله وأسمائه الحسنى، يستمدّ ثقته، يستمد طمأنينته، يستمد قوّته، يستمد معناه الكبير من ذكره لله ﷻ.

ثمّ في حديث آخر عن عليّ عليه السلام:

«لَا تَذْكُرِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سَاهِيًا وَلَا تَنْسَهُ لَاهِيًا - بلا ذكر أصلاً - وَادْكُرْهُ ذِكْرًا كَامِلًا يُوَافِقُ فِيهِ قَلْبُكَ لِسَانُكَ وَيُطَابِقُ إِضْمَارُكَ إِعْلَانُكَ وَلَنْ تَذْكُرَهُ حَقِيقَةَ الذِّكْرِ حَتَّى تَنْسَى نَفْسَكَ فِي ذِكْرِكَ»^(١).

حين يذكر العبد المخلص لله ﷻ أو الذاكر ذكراً حقيقياً لله ﷻ فهو لا يرى إلا شيئاً واحداً؛ يرى الله سبحانه، يرى العظمة الحقيقية، يرى الكمال المطلق، الفاعلية الواحدة الشاملة، الإرادة الواحدة الطليقة،

(١) تصنيف غرر الحكم و درر الكلم، الآمدي، ص ١٨٩.

العلم الواحد المستوعب، الحياة الواحدة الكاملة، الجمال الواحد غير المحدود، أما ذاته فينسلخ في ذكره عن ذكره لها، ذلك لأن شئيته إنما تمثل ظلاً وانعكاساً محدوداً، ضئيلاً، صغيراً لعظمة الله التي لا تُحد، لوجود الله المطلق.

فلو ذكر الله ذاكر منا بحقٍّ لكان في ذكر الله شاغلٌ له عن النظر إلى نفسه، لأنك وأنت تنظر إلى المصباح الذي يغطي بنوره مسافة عشرة كيلو مترات لا يكاد يقع نظرك على الشمعة وذبالتها التي تكاد تموت، فكيف وأن ليس هناك شمعة أمام وجود الله ﷻ تملك الاستقلالية والوجودية بالذات؟!

«وَلَنْ تَذْكُرَهُ حَقِيقَةَ الذِّكْرِ حَتَّى تَنْسَى نَفْسَكَ فِي ذِكْرِكَ وَتَفْقُدَهَا فِي أَمْرِكَ» مرةً ألفتُ إلى أُنِي مصدر الفعل الذي يتم على يدي، أُنِي مصدر الخير الذي يتحصل بسعيي فيما يتراءى لي، ومرة لا أرى أن لهذه الذات في نفسها أثراً، إنما الأثر الحق، والفاعلية الحقّة، والإرادة الفاعلة هي إرادة الله ﷻ، فحيث يرى أحدنا نفسه شيئاً في قبال الله، وأنه له فاعليّة في قبال فاعلية الله، وأن له إرادة في قبال إرادة الله ﷻ، وأن الله يريد وأنا أريد ويكون ما أريد لا ما يريد الله فذلك نظرٌ للذات، والنظر إلى الذات وأن لها فاعلية مستقلة هو كفر وشرك.

«وَتَفْقُدَهَا فِي أَمْرِكَ» بحيث ترى أن الأمر كله لله ﷻ.

(١)

حضارة النسيان:

النسيان جهل من ناحية القيمة العملية كما تقدّم، فالنّاسي لما علّم لا
رشد ولا هدى في تصرّفه كالجاهل. والنسيان كارثة كبرى إذا كان
لما تعني مراعاته الحياة، وإهماله الموت. والحقائق الكبرى يمثّل الالتفات إليها والأخذ بها في صياغة الذات
والمواقف سعادة الأبد ومنها سعادة الحياة، ويمثّل إغفالها أو نسيانها
شقاء الأبد ومنه شقاء الحياة، فإن كان لك أن تنسى شيئاً من
الحقائق التي يضرُّ بك نسيانها فلا تنس شيئاً من الحقائق الكبرى
وأولها الخالق العظيم فتشقى بعذاب مقيم، وخلود في العذاب، على
أن أحداً لا ينعم في الدنيا بحق ولا يستريح وهو فاقد لله، خال من
الشّعور برحمته ورعايته، والذاكرون لله بحق جنتهم غير منتظرة،
وإنما هم يعيشونها في داخلهم حتى في هذه الحياة.

والآن إلى عنوان، حضارة النسيان:

(١) خطبة الجمعة (١٥٣) ١٧ ربيع الأول ١٤٢٥هـ - ٧ مايو ٢٠٠٤م

حضارة النسيان تعني أن حضارة ما تقوم على الأرض، تستهدف أن تنأى بالإنسان عن وعي ذاته، عن ذكر ربه، عن استحضر الحقائق الكبرى التي تجعله على خطّ العبادة لله، وترفع به عن عبادة الطّاغوت.

حضارة النسيان تستخدم وسائل شتى من أجل الإلهاء، من أجل الإغواء، تستلقت نظر الإنسان إلى ما هو عابر، وتأخذ بشعوره عما هو مقيم. تهول له ما ليس فيه هول، وتهون أمام ناظره ما هو عظيم الخطر، الجميل تحوله في نظر الإنسان قبيحاً، والقبيح تحوله في نظر الإنسان جميلاً.

أقزامٌ من البشر - جُندٌ ما هنالك من الأحزاب - تحوّلهم أرباباً مخوفين، يستحوذون على العقل، على الشعور، على الموقف العملي. والله العظيم تصغره في نظر عباده، وتنسيهم عظمتهم.

حضارة النسيان خادعة، شيطانية، مغالطة، تقود سفينة الحياة في بحار من الوهم والخيال، حيث تري الإنسان الإراءة غير الحقيقية لذاته ولربه ﷻ، ولعظمة العظيم، ولا أعظم منه ﷻ. هذه الحضارة حضارة شيطانية، وهي ما يستهدف إيجاده في الأرض الشيطان،



ويوسوس من أجل أن تكون واقعاً شعورياً قائماً في نفس الإنسان،
وواقعاً خارجياً قائماً على الأرض.

الشیطان يقود سفينة الحياة على خطّ النسيان والإلهاء والإغواء
والوسوسة. وكل الطواغيت، وكل المضلين، جندٌ للشیطان يعملون
على نفس الطريق، ومن أجل الغاية نفسها.

صناعة شيطانية:

هناك حضارة من صناعة إلهية رحمانية هي حضارة الذكر، وحضارة أخرى هي من صناعة الشيطان وجند الشيطان هي حضارة النسيان.

[نصوص عامة]:

تقول الآية الكريمة:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١). القوم الظالمون ، حركة الإغواء عندهم تنطلق من إغواء الشيطان لهم، ومجلسهم مجلس الشيطان، وإعلامهم إعلام الشيطان، وخططهم خطط الشيطان، وسياستهم سياسة الشيطان.

حين تجلس إلى ثقافة الظالمين، حين تقرأ كتاب الجبهة الطاغوتية في الأرض، تصغي لمضامين قنواتها الإعلامية، وتتلقى منها باستسلام فأنت تماماً تجلس إلى الشيطان، إلى حديثه، إلى وسوسته، تخضع إلى

ضغطه. ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١) القوم الظالمون ينسيك الشيطان من خلاهم، من خلال حركتهم، من خلال خطتهم، من خلال إعلامهم ذكر الله، ذكر ذاتك، ذكر الآخرة، ذكر ما يقوم لك الحياة.

[و] الآية الأخرى:

﴿...لَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾^(٢) نسيان لم يخرج يوسف عليه السلام عن حد العصمة لكنه يبقى نسياناً مرجوحاً بدرجة من الدرجات.^(٣)

(١) سورة الأنعام: ٦٨.

(٢) سورة يوسف: ٤٢.

(٣) النسيان في الآية الكريمة منسوب في تفسير ليوسف عليه السلام، وفي آخر - ويصر عليه صاحب الميزان (قده) - إلى من ظن أنه ناج من السجينين مع يوسف عليه السلام، ولكل منهما دليله القابل للمناقشة، والعصمة ثابتة على كل تقدير. (منه حفظه الله)

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ... ﴾^(١) الشيطان يلتف على النفس، يغويها، يريها الوهم حقيقة، ويغيم في ناظرها الحقيقة، وتتحول النفس بكل ما فيها من مصادر خير، ومن كنوز هدى، ومن إضاءات إلى لعبة في قبضة الشيطان لمن استسلم للشيطان المرة والمرة والثلاث.

هذا الإنسان الكبير الذي تعلّم كثيراً، وخبر الحياة كثيراً، وتراكت عنده التجارب، وقرأ القرآن، وأدمن قراءته، وتعلّم الفقه وأكثر من تعلّمه، حين يبدأ جولة من الاستسلام للشيطان يتحوّل إلى طفل ينسى ذاته، ينسى مصالحه، لا يعرف الخير من الشر. له معرفة فكرية غزيرة، ولكن هذه المعرفة الفكرية الغزيرة لا تلامس النفس، ينبني شعور على خلافها، وتختطّ النفس لها خطأ آخر غير ما عليه الرؤية الفكرية النظرية.



وللشيطان جنود يعملون عمله،

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾^(١) فالإضلال والغواية والإلهاء، وإلفات النظر عما هو المهم، وعما هو الجدد، وعما هو الحق وظيفته دائمة لخط الشيطان وجند الشيطان، لفرعون شخصاً، فرعون نوعاً، فرعون خطأً.

هذه نصوص عامة تؤكد لنا قيام حضارة على الأرض من صناعة شيطانية؛ صبغتها أنها حضارة النسيان.

[نصوص خاصة]:

وهناك نصوص خاصة بمعنى أنها تتناول مواضيع خاصة يعمل الشيطان وجبهة الشيطان العريضة على أخذ ذاكرة الإنسان بعيداً عنها، وأخذ اهتمام الإنسان على منأى منها، ولا يعني النسيان هنا كما تقدم محو صورة الموضوع، ومحو صورة القضية المهمة المركزية، إنما يعني أن الشيطان وجند الشيطان ينزلان بمستوى النفس الإنسانية، ويملكان من الإغواء، ومن الإلهاء، ومن المغالطة، ومن التّغريب ما يجعل الإنسان يقف من الحقائق الكبرى الصارخة موقف

(١) سورة طه: ٧٩.

الناسي، على أنه ليس على نسيانٍ من ناحيةٍ فكرية، ومن ناحيةٍ احتفاظٍ الذاكره بصورة القضية أو الموضوع.

ألا ترى أن الطفل يرى الشيء كالنار ولكن طفولته، وضآلة خبرته، وضعف تقديره للأمور يجعله يقف من النار التي جربها مرة أو مرتين موقف من نسي حرارة النار، وأذى النار فيمد إصبعه حيث تشرق. الإنسان الفيلسوف، الإنسان الفقيه، الإنسان الخبير، الإنسان الكبير بتراكمات تجاربه، وخبراته وعلمه يتحول هذا الطفل في تعامله مع القضايا الكبرى حين تصوغه يد الشيطان. ومجتمع كله، وحضارة كلها تتحول إلى ذلك الطفل وأقل منه حيث تكون الصياغة شيطانية تعتمد النسيان، تعتمد إلهاء الإنسان، واغواءه واغراءه بالباطل.

([ف] للشيطان من نفسه الشريرة، ومن جنده الغاوين جبهة عريضة تستهدف بأساليب شتى أن تضل الإنسان وتلهيه وتصرفه عن ذكر الحقائق الكبرى التي تمكنه أن يقيم في ضوئها حياة واقعية قويمية، ويحقق درجة عالية من الكمال والسعادة، وتوقعه في الوهم والخيال والنسيان لتستحوذ عليه، وتستنزف حياته، وتحوله على يدها آلة طيعة من أجل أغراضها الأنانية العدوانية المشبعة الساقطة الخبيثة.



[مما تستهدف جبهة الشر أن تنسيه الإنسان] :

١- الله ﷻ :

... أول ما يستهدفه الشيطان وأهله من الإنسان أن ينسيه الله الذي لا يُبقي ذكره قابلية في القلب لاحتضان الخبيث، والتعلق بالقبيح والركض وراء السراب، والغرور بالزيف، ويحمي النفس من أسر الهوى، وآلهة الزور، واستغفال الطغاة. ^(١) [ولما كان] من أكبر الحقائق التي تستقيم بالإنسان على الدرب، وتجعله لا يختار عبادة الطاغوت، ولا يقدم شيئاً على عبادة الله هو أن يذكر ربه العظيم. فإذاً لا بد لحضارة الطاغوت أن تنسي الناس الله، حتى يتسنى للطاغوت أن يُقام له وزن في الأرض وأن يُقدّر.

(وإذا كان كذلك فلا بد لجبهة الشيطان لتجد موقعاً في نفس الإنسان، وطريقاً لاستغفاله واستغلاله على طريق أغراضها الدنيئة أن تحارب ذكر الله في هذه النفس، وتنأى بها ما استطاعت عن موارد الذكر، ومواطن اليقظة، وأن تثير دون رؤيتها للحق، واستحضارها لها الغبار، وتحشد ما أمكنها من حائل الضباب والسحب الكثيفة، وهي تقاوم في نفوس الناس كل ما يعود الالتفات

(١) ما بين القوسين من الخطبة ١٥٤.

إليه عليها بذكر الله العظيم، ويضعها على طريق الهدف الصالح، والغاية الكريمة السامية، والسعادة الأبدية الحقّة.^(١)

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾^(٢) في آية أخرى ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ... ﴾^(٣) وسائل للإلهاء، وسائل للإغراء، أمور وهمية مصطنعة، أمور صغيرة مكبرة من أجل إلفات نظر الإنسان عن ربه وذاته، وحقيقة الآخرة، وكل حقيقة تدخل في صياغة ذاته لتكون قوينة ﴿ ... فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾^(٤).

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾^(٥) فمن ينسى الله يتحول إلى بهيمة، ويقاد قود البهيمة، ويوضع على الطريق التي تضره وهو يبتسم، ويغرى بالنار وهو فرح ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾^(٦).

(١) ما بين القوسين من الخطبة ١٥٤.

(٢) سورة طه: ٨٥.

(٣) سورة طه: ٨٨.

(٤) المصدر

(٥) سورة الحشر: ١٩.

(٦) سورة التوبة: ٦٧.



(١)

ب- العهود والمواثيق الإلهية:

ومما يُنسيه المضلون والشيطانُ الإنسانَ هو العهود والمواثيق الإلهية.

أخذ الله ﷻ على هذا الإنسان ميثاقاً قبل أن يُوجده إنساناً حياً قائماً على الأرض، فله ﷻ عهدٌ تعرفه فطرة الإنسان، ثم له عهود أخرى أخذها على بعض الأمم التي أرسل إليها رسلاً. هذه العهود لله ﷻ عند الإنسان هي العهود التي يجب أن تحكم حركته، وأن تخضع لحاكميتها كلّ العهود والمواثيق؛ فكل ميثاق يتعارض مع ميثاق الله هو ليس بميثاق، وكل عهد يتنافى مع عهد الله مطروحٌ ملغي لا قيمة له أصلاً. ما له قيمة من العهود والمواثيق هو ما وافق عهد الله وميثاقه، أما ما تعارض مع عهد الله وميثاقه فهو لغو ولا قيمة له أصلاً.

(١) خطبة الجمعة (١٥٤) ٢٤ ربيع الأول ١٤٢٥هـ - ١٤ مايو ٢٠٠٤م

الشیطان یُعظم العهود المعارضة لعهد الله، وینسی الإنسان عهد الله وميثاقه. تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(١)
 موجود شيء من النسيان لعهد الله ﷺ عند آدم، ووصية من الله ﷻ لآدم، هذا النسيان أوقع آدم في مشكلة لم تخرج به عن دين الله، ولكن أتعبت حياته، فأقل ما يجازى به من نسي عهدا لله عز وجل أن تكون حياته نصبا، وأن تكون حياته رهقا. آدم ﷺ لم يخرج من العصمة بما كان له من شيء من نسيان، لكن نسيانا ما كان قد حدث كما يفهم من الآية الكريمة، وأن هذا النسيان مثل مشكلة بالنسبة لحياة آدم ﷺ.

﴿فَبِمَا نَقَضْنَاهُمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾^(٢) وهذا ميثاق مع اليهود هناك موثيق مع أمم أرسل إليهم رسل، وكانت هذه الموثيق واصله على يد الرسل ومن خلال الكتب، وهي

(١) سورة طه: ١١٥.

(٢) سورة المائدة: ١٣.



تختلف عن ميثاق الفطرة، وإن كانت متجهة اتجاهه ومؤكدة له ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾^(١)

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾^(٢) والقرآن الكريم هو ميثاق بين الله عز وجل وبين هذه الأمة، فابتعادنا عن كتاب الله شبراً يعني نسيان الميثاق، تخلينا عن مفاهيم كتاب الله، عن أهداف كتاب الله، عن منهج الله ﷻ يعني نسياناً منا للعهد مع الله عز وجل.

ألم نكن وقد قبلنا الإسلام قد قبلنا القرآن؟! ألم نكن وقد دخلنا الإسلام قد قبلنا قيادة رسول الله ﷺ وكل كلمة أتت على لسانه الشريف؟! نحن في عهد مع الله على أن نقيم حياة قرآنية في الأرض، على أن نتخذ رسول الله ﷺ والقيادة من سنخه قيادة لنا دون أي قيادة، هذا عهد يعطيه المسلم لله ﷻ حين يقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

وما أكثر ما ننسى هذا العهد في علاقتنا مع أنفسنا، مع ربنا، مع أسرنا، مع مجتمعنا، مع كل محيط الحياة، مع النملة، مع النبتة، مع

(١) المصدر

(٢) سورة المائدة: ١٤.

أي شيء آخر. كل مخالفة، وكل ميل عن كتاب الله عز وجل وتعاليمه يعني نسياناً عملياً لهذا العهد، وتخلياً واقعياً عن هذا الميثاق.

﴿سَنْقَرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾^(١) لا النسيان العلمي ولا النسيان العملي. رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضمن له ربه ﷻ أن لا ينسى القرآن على مستوى العلم، وأن لا ينسى القرآن على مستوى الذكر في مقام الشعور، وفي مقام العمل، في المواقف السهلة، وفي المواقف الصعبة، حين تكون الدنيا معه، وحين تكون الدنيا ضده.

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾^(٢) فهناك مواعيق وعهود تُنسى، وهناك كتب تنسى، كتب الله تنسى، ومواعيق الله وعهوده تنسى، وكل هذا النسيان يؤثر كارثة في حياة الإنسان، والكارثة الأكبر أن يخسر آخرته.

(١) سورة الأعلى: ٦.

(٢) سورة طه: ١٢٦.



ج - [اليوم الآخر]:

نسيان يتعلّق باليوم الآخر:

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ
مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١﴾ متى
القلب؟ القلب الذاكر للآخرة، نعيمها، هولها لا ينسى، لا يلهو، لا
يلعب، إنما نلعب، إنما نلهو، إنما نضحك، إنما نتمادى في الغي ونحن
على نسيانٍ من الآخرة، أما الذاكرون للآخرة، الذاكرون للرحلة
الطويلة الشاقة، الذاكرون لرحلة الوحدة والوحشة، الذاكرون ليوم
المنقلب وهوله العظيم، لا يلهون، لا يلعبون، لا يعبثون. حين يلهينا
التكاثر مثلاً:

﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ (٢) وهو وسيلة من وسائل الشيطان، ننسى
الآخرة، ننسى السعي لها، نتلهى بالدنيا، نأنس إليها.

(١) سورة الأنبياء: ١-٢.

(٢) سورة التكاثر: ١.

﴿ .. فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾^(١) تأتي أفواج وأمم يوم القيامة تنساهم رعاية الله، تنساهم رحمة الله، بمعنى أن تتعامل رحمة الله معهم تعامل من نسي، وأن تنصرف عنهم عناية الله، وألطف الله وكأنهم منسيون ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ..﴾ هذا جزاء أي شيء؟ ﴿... كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ نسوه في مقام الفكر، فلديهم فكرٌ يناقض فكر الآخرة، قدموا للناس نظريات تعارض رؤية الآخرة، ونسوا الآخرة في مشاعرهم، عظموا الدنيا وتفهت في أنفسهم الآخرة، وعد الله عندهم كان لا يساوي شيئاً، ووعد الآدميين كان في نظرهم يساوي كل شيء.

يستحوذ عليهم المنزل، تستحوذ عليهم السيارة، يستحوذ عليهم كل شيء من هذه الدنيا، ووعد الله الجميل لا ينال من قلوبهم موقعا أبداً، نسوا يوم الآخرة في مقام الشعور، ونسوه في المواقع العملية، وفي صياغة المواقف؛ في الفعل وفي رد الفعل. فكان السعي كله للدنيا ولم تكن الآخرة تنال من سعيهم حظاً.

الشیطان يُنسى الناس الله، ينسيهم الموائيق الإلهية، والكتب السماوية، وينسي الإنسان نفسه. الشيطان يتخلل ما بين الإنسان

(١) سورة الأعراف: ٥١.



ونفسه، لينسيه ذاته، لينسيه قيمته، لينسيه مستقبله، لينسيه
مصلحته، يريه نفسه الشيء الخفيف الذي يمكن أن يُباع بحفنة من
الدنانير، يريه نفسه حقيرة بسيطة كتلة من اللحم والدم التي يمكن
أن تدخل في سوق النخاسين لتُشترى بالثمن البس.

أنت عظيم عند الله، مُكرَّم عند الله، سخر لك ما في الأرض، وسخر
لك ما في السموات، سخر لك الشيء الكثير في هذا الكون. أنت
كريم عند الله، أُعطيَت دور الخلافة في الأرض، أُعدَّت لك الجنان،
أعطاك الله العقل، أعطاك الله المشاعر الروحية المشعة، أراد لك موقعا
كريما متقدِّما جداً.

يريك نفسك لست أكثر من غنمة، تتلخَّص الشيطان كيف يريك
نفسك؟ حاجاتك في مأكَل ومشرب، في تقمّم وعلف، وفي أن يُكسى
الظهر وتُقضى حاجة الفرج؛ هذه حاجات الغنم، وحاجات البقر،
وحاجات الحمير. الشيطان ينسيك روحك، ينسيك عقلك، ينسيك
أشواقك الإلهية، ينسيك تطلُّعك الكبير إلى الخلود.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾^(١) عقوبة عظمى من الله عز وجل للشخص أن ينسيه نفسه الإنسانية الكريمة فتتهون عليه نفسه، ويسقط في نظره، وحين تسقط ذاتي في نظري، وتهون علي نفسي يمكن أن أبيعها بكل ثمن، ويمكن أن أبذلها رخيصة بلا ثمن. أما من عرف نفسه فلا يرضى لها الدنيا ثمنا، ولا يرضى لها أن تسجد لصنم من الأصنام، يأبى لها أن تسجد لغير الله ﷻ. أما الذين هانت عليهم أنفسهم فيسجدون للصنم الأمريكي، ويسجدون للصنم البريطاني، ويسجدون لمن دون أولئك.

الله عز وجل لا يظلم أحداً، ولا ينسى الله أحداً نفسه إلا بعد أن ينسى الله، والعلاقة هنا علاقة تكوينية، علاقة سبب ومسبب، حال تنسى الله تنسى نفسك. بمقتضى الترابط التكويني، ومقتضى القضية العلوية بين ذكر الله وذكر النفس أن من نسي الله نسي نفسه.

النفس من أين تستمد شعورها بالعظمة، بالعزة بالكرامة بالقيمة؟ من شعورها بالانتماء إلى الله العظيم، فحين يجد أن معبوده بقرة، أو أن الكون وجد صدفة، وأن هذا الكون وجود مبتسر، وأن لا نظام أو لا منظم لهذا النظام، وأن لا كبير في الكون، وأن كل شيء حادث،

(١) سورة الحشر: ١٩.



وكل شيء سيموت، وكل شيء إلى أفول، لا بد أن تكون النفس رخيصة.

هذا الجزاء لا يأتي إلا من باب ترتب النتيجة على سببها والمعلول على علته ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾^(١).

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾^(٢) يطرح القضية استبعاداً، وهذا لنسيان الإنسان، لولا نسيانه لما جاءه هذا الاستبعاد، هذا ناس لنفسه، ناس لبدايته، ﴿أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾^(٣).

(١) المصدر.

(٢) سورة مريم: ٦٦.

(٣) سورة مريم: ٦٧.

الفصل الثاني

عوامل ، تحديات ، تأديبات

- عوامل ذكر وعوامل نسيان.
- موارد للتحدي.
- آيات وتأديبات.

(١)

الفصل الثاني :

عوامل ، تحديات ، تأدييات.

عوامل ذكر وعوامل نسيان:

من الفكر ما هو فكرٌ للذكر، ومنه ما هو فكرٌ للنسيان. من الأشخاص من يلهيك ويغويك ويصرفك عن الله، ومنهم من يذكرّك الله، يذكرّك طاعته، يذكرّك حقه. من الممارسات ما يبعد بك عن الطريق، ومنها ما يضعك عليه. هناك بيوت للذكر وأخرى للنسيان، هناك مشاريع للذكر ومشاريع للنسيان، سياسات للذكر، سياسات

(١) خطبة الجمعة (١٥٥) ١ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ - ٢١ مايو ٢٠٠٤م



للنسيان، دولٌ للذكر، ودول للنسيان، مساحة الحياة كلها متقابلات منها ما هو للذكر، ومنها ما هو للنسيان.

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾^(١) هذا كتاب، هذه ثقافة، هذا منهج، هذه اطروحة، هذا منبع للمعرفة، للذكر، لليقظة، لإحداث الوعي؛ لتوليده، لإثارته، لنموه، لازدهاره، لتفتح الضمير، ليقظة العقل، لنباهة النفس، لسمو المشاعر.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢)

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٣) هذا تبليغٌ لثقافة، وتبليغ لمنهج، وتبليغ لرؤية، فهناك تبليغ للإيقاظ، للذكر، وللنباهة.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾^(٤) فهناك بيوت في الأرض بيوت إشعاع، وبيوت إنارة وهداية تنطلق منها كلمات الوحي، وهدايات الوحي وإشعاعاته، الثقافة الخيرة، ثقافة الرشد لا ثقافة الغي. بيوت لا يكبر

(١) سورة ص: ١.

(٢) سورة ص: ٨٧.

(٣) سورة القصص: ٥١.

(٤) سورة الأحزاب: ٣٤.

فيها إلا الله، لا يُعبد فيها إلا الله، قلوب أهلها متولّية بذكر الله، ألسنتهم مترتبة بذكره ﷻ، بيوت تخلو من كل مادة شيطانية، وتغنى بالمواد الرحمانية المربية والمزكية.

﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ «رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ»^(١) هذه بيوت، وهي التي تحفظ الأرض من أن تمور، من أن تهتز، من أن تتزلزل. هذه البيوت هي التي تحفظ للإنسانية خطها الكريم، وهي البيوت المقاومة للشر في الأرض ولكل الطغاة، وهي البيوت التي تورث الأجيال هدى ونوراً وضياءً ورشداً وحكمةً وصلاًحاً، وتضع المسيرة الإنسانية على الطريق.

وهناك رجال للذكر، حياتهم ذكر، ودورهم ذكر، ومجالستهم ذكر، والأخذ عنهم يثير الذكر ويغني بالذكر، ويضع على طريق الذكر.

(١) سورة النور: ٣٦-٣٧.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ
إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)

ممارسات تعطيك الرشد، تلهب فيك الوعي، تثير فيك الشعور
بالعبودية لله ﷻ لتكون حراً أمام كل شيء آخر.

﴿.... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾^(٢)

«طوبى لعبد ذكر الله من أجله، - في المقابل - وويل لعبد نسي
الله من أجله»^(٣)، هذا العبد الشقي يحل المنطقة فيملؤها طرباً، يشيع
فيها الفساد، وروح التميع، لا يأتي على يديه إلا ما يعطي حضوراً
للشيطان، ويمهد القلوب لأن تنفتح على موائد الشيطان.

«أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله»^(٤)

(١) سورة الأنبياء: ٧.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الصدوق، ج ٢، ص ٥٦.

(٤) عن الرسول ﷺ، كنز العمال، المتقي الهندي، ١٧٨٣.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(١) ممارسات هي من أجل النسيان، هي من أجل الهروب بالقلب عن الله عز وجل، هي من أجل سرقتك عن وعي ذاتك، من أجل سرقتك عن ارتباطك بآخرتك، عن توجهك بربك الكريم ﷻ. الخمر، الميسر مادة بغضاء، ومادة نسيان. ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ومن طرق الشيطان للصد عن ذكر الله أن يربط الإنسان بالخمرة بالميسر بالزنا بالفساد.

(١) سورة المائدة: ٩١.

موارد للتحدي:

النفس دائماً مهيئةٌ لأن تذكر، ومهيئةٌ لأن تنسى، وفي كلِّ المواقف نحن أمام تحدٍّ لأن يغلبنا الشيطان، نحن مهيؤون إلى أن نكون في معسكر الشيطان، وأن ننسى الله، وأن تلهينا دنيانا عن آخرتنا، وأشياءنا التي بيدنا عن ذواتنا.

لكن موارد خاصة يزداد فيها التحدي، ويعظم الضغط، وتشتد المحنة حتى ليكون الإنسان وكأنه في مهب الريح، والأثقال الكبار تجد نفسها خفيفةً حينئذ، وتحتاج كلُّ النفوس إلى استمسك شديد بالله عز وجل حتى تثبت.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١)
هنا النفس تحتاج إلى ذكر كثير، والنفوس التي لم يكن لها اعتياد على الذكر الكثير، على الارتباط الشديد بالذكر كيف تستحضر أن تذكر الله عز وجل وقد عظم الموقف، واشتد الضغط، وانفتحت كلُّ السبل للشيطان؟!

(١) سورة الأنفال: ٤٥.

في المواقف التي تحتاج إلى وزن كبير، وتكون الأوزان الكبيرة مهددة، كيف تثبت الأوزان الخفيفة إلا أن يرحمها الله. في موقف اللقاء، لقاء الموت وجهها لوجه، ليس بيني وبين أن أموت إلا أن أثبت، أكون أمام موردٍ من موارد للتحدي الضخم، وتحتاج إلى وزنٍ ضخم، ونفسٍ كان لجوؤها دائماً إلى الله، وتعلّمت أن تستلهم الصبر والصمود والمقاومة من ارتباطها بالله. فكيف بي إذا لم أكن على ارتباط بذكر الله والتضحية من أجله بكثير ولا قليل؟!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١) ولعل بالك ينصرف دائماً إلى جبهة السيوف والرمح والرصاص والقنابل والصواريخ، وهي جبهة فيها تحدي ضخم، وموجة التحدي فيها طاغية جداً، ولكنها في الكثير لا تكون جبهة دائمة.

وهناك جبهات دائمة تحتاج إلى استمرار مقاومة، واستمرار وعي، واستمرار يقظة، واستمرار صبر. قد يتحامل الإنسان على نفسه فيصبر ساعة، لكن أن يصبر الأيام والليالي المتواصلة فهذا أمر آخر. والجبهات كثير، منها الجبهة السياسية، والجبهة الثقافية، والجبهة الاجتماعية، والجبهة الاقتصادية، فالشيطان له عديد من الجبهات، والطغاة حولوا الدنيا كلها إلى جبهاتٍ شيطانية. والصمود والصبر

(١) سورة الأنفال: ٤٥.



والمواجهة والانتصار في هذه الجبهات يحتاج إلى نفسٍ طويل، وصبر كبير، وكل ذلك مادته الأساسية ذكر الله ﷻ.

«أَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا دَخَلْتُمُ الْأَسْوَاقَ»^(١) تدخل السوق وجيبك فيه القليل، والسوق فيه من زينة الدنيا الكثير، تتور المشاعر، قد تتحرك الحسرات، قد تقوم نظرة يائسة، نظرة مستصغرة للذات، قد تنسى قيمة إيمانك، تنسى قيمة ارتباطك بالله، قد ينشأ سخط على القدر أن خلى الجيب مما ثقلت به جيوب الآخرين، قد تنشأ مشاعر دنيوية تجعلك على طريق المساومة على ذاتك ودينك، لبضاعة راقية لك ولا تملك أن تشتريها.

والسوق فيها كثير من معروضات الدنيا، ومعروضات الشيطان، والكلمات الساقطة، وما يثير الشهوات والرغائب، فصارت موضعاً خاصاً للتحدي، ونحتاج فيها إلى الذكر.

«اذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ هَمِّكَ إِذَا هَمَمْتَ»^(٢) اذكر الله عند همك إذا هممت ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾^(٣) أي همّ كان، وعلى أي محل حملنا ذلك لهم فإن الانصراف عنه، فإن مواجهته بعناد، وإصرار واستعلاء

(١) الخصال، الصدوق، ج ٢، ص ٦١٤.

(٢) كنز الفوائد، الكراجكي، ج ٢، ص ٣١.

(٣) سورة يوسف: ٢٤.

يحتاج إلى ذكر قلبي لله ﷻ يغني به القلب عن الدنيا، وتعظم خشية الله فيه حتى تسقط كل الضغوط أمام تلك المخشية.

«اذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ هَمِّكَ إِذَا هَمَمْتَ، وَعِنْدَ لِسَانِكَ إِذَا حَكَمْتَ»^(١)
العدل العدل، والعدل يحتاج إلى رؤية حقّة لعظمة الله ﷻ، لأن الضغوط الدنيوية، ضغوط الصداقة، وضغوط العداوة، وضغوط القرابة كبيرة عند الحكم، ويحتاج ردّ كل ذلك ونسفه عن التدخل في الحكم إلى روح ذاكرة.

«اذْكُرْنِي حِينَ تَغْضَبُ أَذْكُرْكَ عِنْدَ غَضَبِي فَلَا أَمَحَقُّكَ فِيمَنْ أَمَحَقَّ»^(٢) لحظة الغضب لحظة فوران عواطف، لحظة غليان مشاعر، لحظة يحضرها الشيطان بكل قوة، وتكون النفس فيها أقرب ما تكون إلى أن تستمع إلى الشيطان ووسوسته، وأن تنتقم للذات، وأن تنسى القيم. والقيم ضوابط، الأخلاق مقيّدة، والنفس في تلك اللحظة تريد أن تثبت ذاتها، وتريد أن تتفوّت، وهي فيها مهيّئة لأن

(١) المصدر.

(٢) الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج ٢؛ ص ٣٠٤ كليني، محمد بن يعقوب، الكافي

(ط - الإسلامية) - تهران، چاپ: چهارم، ١٤٠٧ ق.



تستعصي على كل القيم، وأن تقطع كل الأحبال والقيود. في هذه اللحظة حين يذكر ذاكر فهو حقاً من الذاكرين، ومن ذكره لا تأتي كلمة على لسانه تغضب الله عز وجل، ويخلو جنانه مما يسخطه سبحانه.

آيات وتأديبات:

لله آياتٌ للذكر تذكّر الناس، تعلمهم، توقظهم، تلفت بصائرهم، تستنطق فيهم فطرتهم، تريهم الميثاق الكبير بينهم وبين الله ﷻ، تعطي لقوى الخير فيهم أن تتحدث إليهم، وأن تضبطهم، أن تضعهم على الطريق.

﴿وَيَبِّينُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١٢)

آياتٌ للتذكّر. وهناك آياتٌ قرآنية، وهناك آيات كونية، آياتٌ يحملها الكتاب المنطوق، وآياتٌ يزخر بها الكون المنظور، وهذه آياتٌ للتذكير، وتلك آيات هي كذلك للتذكير.

دروس الله عز وجل وآياته مبثوثة، وقد تقول لي أن هناك دنيا تنسينا، لكن أقول لنفسي ولك أيها الأخ الكريم وأيتها الأخت الكريمة أن هناك موتا يذكّرنا، أن هناك تقلّباً في أحوالنا ونفوسنا يجعلنا نذكر من هو القوي، من هو المتصرف، من هو المالك.

(آيات الله عز وجل تترى إلى الناس على يد الرسل، ومنها آياتٌ كونية لتذكّر هذا الإنسان، وتثير في داخله كتاب فطرته. وكتاب فطرته ناطق بذكر الله، مسبحٌ باسمه الكريم، هادٍ لهذا الإنسان لما هي

غايته القصوى، وما هو هدفه الأخير؛ وهو هدف الوصول إلى الله ﷻ بعقله وقلبه وروحه حتى لا يبقى بينه وبين الله حائل يمنع نفسه من رؤية الله ﷻ.^(١)

﴿... وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٢)

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٣).

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾^(٤)

... هناك آيات وهناك تأديبات. قد يهرب الهارب، قد يشط الإنسان عن الطريق، ويبعد عن الله، تضعف ذاكرته بمعنى أن نفسه تفقد كثيراً من قابلية الذكر لله لإضعافها على يده، هذه الحالة قد لا تكفي فيها الآيات المعتادة، ولا بد من درس غليظ قاس مؤدب رحمة

(١) هذه الفقرة من صدر الخطبة اللاحقة: ١٥٦.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٥.

(٣) سورة الزمر: ٢٧.

(٤) سورة الأعراف: ٣٦.

بهذا العبد الناسي لربه ﷻ لعله يعود، وفي هذا الدرس حجة مضافة عليه.

(هذه الآيات ... تذكرنا بأن الله ﷻ آيات من أجل إيقاظ النفس، ومن أجل وضعها على طريق هدايتها، وإزاحة أستار الشيطان، وغبار السيئات، وكل ما يمنع من رؤية الحق ﷻ مما يأتي على النفس مما كسبت من شر، ومما أصغت إليه من حديثٍ سوء، ومما دخلت فيه من باطل.)^(١)

انظر إلى آل فرعون، استكبارهم، عصيانهم، إدبارهم عن الله عز وجل، عنادهم، مكابرتهم مع ذلك كانت رحمة الله تلاحقهم، وكان نداء الله مستمراً ليردهم إلى الطريق؛ طريق النجاة، والله غني عن العالمين. الله محتاج إلى فرعون؟! إلى قوم فرعون؟!

أحياناً يكون في المحن رحمة. من المحن ما هو عقوبة، ومن المحن ما هو درسٌ تأديبيٌ يعود بالعبد إلى ربه الكريم.

(١) هذه الفقرة من صدر الخطبة اللاحقة: ١٥٦.



(١)

ما ينزله الله ﷻ بعباده من نقص في المال، من نقص في الولد، من كوارث، مرة يكون عقوبة وكسراً لغرور هذا الإنسان، ولثلاً يُضِلُّ من الناس كثيراً، لأنه لو استمرَّ للطغاة نعمٌ تعطيتهم الانتفاخ وتعطيهم الانتفاش من غير أن يُسهم سوء أبدأً ربّما تألّهوا في نفوس الكثيرين فأضلّوا أجيالاً من الناس يريد الله عز وجل لهم الهداية.

فتأتي من هذا المنطلق دروسٌ إلهيةٌ لا تنفع هذا الطاغية وإنما تنقذ غيره من الوقوع في الغرور به، وهناك دروس أخرى وآيات أخرى تأتي لهداية الضال العاصي نفسه وردّه للطريق، ولو استمرت له عطاءات الخير، وتدفقت عليه نعم الله دائماً بلا بلاء لكان من أهل النار، ولكن لأن الله ﷻ يريد بهذا الإنسان رحمةً يُنزل عليه من البلاء ما ينقذه ويجعل نفسه من بعد ضلالها مهتدية.

ووجه آخر لثلمةٍ في بعض النعم، لشيء من البلاء الإلهي يأتي على إنسانٍ أو أمة، وهو أن تقام على هؤلاء العصاة الحجة، فقد يقول

(١) خطبة الجمعة (١٥٦) ٨ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ - ٢٨ مايو ٢٠٠٤م

بعض العصاة: "ربنا إنك أعطيتنا فطرة، وجعلت لنا من هدايات الرسل، وهدايات الكون ما يكفي ولكن النفس أمارة بالسوء والإغراء والاستغراق في النعم قد ينسي". فيأتي الدرس القاسي ليوقظ، فحتى لو لم ينفع مع هذه النفس إلا أنه يكون حجة مضافة جديدة عليها.

فهذه الآيات ترجع بالنفس إلى الواقع، وإلى الحقيقة، وتخلصها من الوهم، ومن الغرور، ومن الذهول الذي قد يعتريها بسبب توالي النعم، وعدم البلاء. فالرفاه والنعمة والصحة والقوة قد تجر الإنسان إلى درجة من الغرور والنسيان لربه الكريم.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾^(١) هؤلاء قد أُقيمت عليهم الحجة من خلال البلاء المتكرر الذي لم يوقظ فيهم ضميراً، ولم يحيي قلباً، ولم يبعث فيهم شعوراً حيوياً بحق الله ﷻ. فهناك موت للمشاعر، وفقد للاحساس، وتعطل في جهاز الاستقبال قد يصيب الإنسان إلى حد أن لا تفيد معه النعم ولا النقم، وأعوذ بالله من هذه الحالة التي تفقد النفس فيها قابلية العودة إلى الله والأوب إلى رحمته تبارك وتعالى.

(١) سورة التوبة: ١٢٦.

الفصل الثالث

(الإنسان) بين حضارتين

حضارة الطين وحضارة الإنسان

- الإنسان هدفاً.
- الإنسان موقعاً.
- الإنسان دوراً.
- الإنسان مسؤولية.

(١)

[الفصل الثالث :

(الإنسان) بين حضارتين .. حضارة الطين وحضارة
الإنسان]

حضارتان: حضارة الطين وحضارة الإنسان.

نعم هما حضارتان؛ حضارة الطين وحضارة الإنسان. ما هو المعنى؟

(١) خطبة الجمعة (١٦٠) ٦ جمادى ١٤٢٥هـ - ٢٥ يونيو ٢٠٠٤م

تكلم سماحة الشيخ في الخطبة السابقة / الجمعة (١٥٩) ٢٩ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ - ١٨ يونيو ٢٠٠٤م ولظرف ما، حول موضوع ليس من مواضيع سلسلة حضارة الذكر وحضارة النسيان، بعنوان : صورة من الدين تحت عنوان "هذا هو ديننا"، عرّف فيه شيئاً من البعد الخلقى الكريم لديننا الحنيف بانفتاحه الإنسانى الرشيد.



أ- حضارة الطين:

حضارة من بناء الإنسان بقابلياته الكبيرة، بجهوده المضنية، بتجاربه الكثيرة المتراكمة على الأرض. حضارة فيها علم وإبداع واكتشاف واختراع، عمارة شامخة، زراعة عامرة، مصانع تشهد بفكر جبار، بمجهود عظيم، بفن رائع. لكن نظرتها للإنسان قاصرة، مقدّسها المادة، ملحوظها الدوافع الحيوانية، هدفها إشباع الشهوات الحسية وما هو قريب منها، واهتمامها بما يقع على طريق هذه الشهوات واللذائذ. العقل والعلم فيها وسيلة للنمو المادي والتلذذ الحسي، وإشباع النهم الحيواني. لا واقعية عندها للقيم المعنوية: للصدق، للأمانة، للعدل، للإحسان. الأخلاق كلها فيها عنوان بلا خلفية من واقع، لا حساب عندها لرقابة خلقية مترتبة على مسؤولية يتحملها الإنسان، ولا لمثوبة أو عقوبة ينتظرهما وراء هذه الحياة.

حضارة الطين تجعل لب الإنسان قبضة التراب، وعناصر المادة، والروح التي بها نمو وحركة هذه القبضة الترابية، وما تجده به هذه الروح من لذائذ ومتع تتصل بهذا الجانب الوضيع من الإنسان. هذه الروح معترف بها في حضارة الطين كما تعترف بالبدن وحاجاته، وهي حضارة تلغي النظر تماما إلى نفخة الروح العليا، وسرّ التطلّعات

القدسيّة في نفس الإنسان، ومنبع القيم الخلقية في وجوده، والتي تحاول النفس أن تتشبه بالتزّين بها بأسماء الله الحسنى.

حضارة كبيرة عملاقة مادية على تقزّم شديد، وخواء كبير من ناحية روحية. الحضارة المادية أصغر ما فيها الإنسان الآلة، الإنسان اللذة العابرة، والحيوان.

الإنسان في الحضارة المادية صغير، ليس هو أكثر من آلة، أكثر من لذة عابرة، من حيوان تكاد تستوي حاجاته وهمومه وتطلعاته مع أدنى حيوان وحشرة ودودة في الأرض.

ب- حضارة الإنسان:-

هذه الحضارة تنظر إلى الإنسان أكثر من كونه شيئاً من الطين، وأكثر من كونه روحاً تعطي التراب نموه وحركته. إنها ذات نظرة تضيف إلى ذلك روحاً كثيرة الشوق إلى الله، شديدة التطلع إلى التشبه بأسمائه الحسنى، لا تستريح إلا في ظل معرفته، ولا تأنس إلا بذكره، ولا تقنن من ذاتها إلا بقربه، ولا تستغني عنه بكل ما سواه، ولا تفتقر إلى ما دونه ما وجدته وعرفته وشعرت برضاه.



هذه الحضارة تتحرك بالمادة على طريق نموها وتقدمها، وتثري الحياة بالحركة والنشاط، وتقيم على الأرض واقعاً عملاقاً أكبر مما ما تصنعه الحضارة المادية من واقع كبير على الأرض. لكن الواقع الأكثر تعملقاً، والأكثر ترسّخاً، والأكثر بسوقاً والذي تصنعه حضارة الإنسان - المقابلة لحضارة الطين - على الأرض واقع منشدٌ إلى القيم، وشاهدٌ على الرسالية، وناطقٌ بقيم الخلق والدين، ومتمسّمٌ بالوضع المادي الكبير المصنوع على يدها بدل أن تخسر قيمها بالوقوف عنده والذوبان فيه، فتتمرّغ في الطين، وتبتلي ببلادته، ويستولي عليها جموده، وينقطع بها عن الأفق اللامحدود، والنور الذي لا يتوقف، ولا يأتي عليه شيء من النهايات.

الإنسان بروحه الشفافة ورؤيته الكونية العميقة الواسعة الأصيلة، وشعوره الصاعد إلى الله، وشوقه وولفه المتعلق بعظمته، الإنسان بذاته المعنوية الفياضة بالخير، بالحب الطاهر، بالوعي الرشيد، بالعدل، بالإحسان، بالرحمة، بالعطاء، بالإيثار هو الهدف في هذه الحضارة. أما النمو المادي ومتع البدن [فـ] مما يقع وسيلةً فيها لصناعة الإنسان الكبير في عقله العارف بالله، وفي روحه المنفتحة على هداه، وقلبه المليء بالخير، وذاته الزخّارة بمعاني الرفعة والسمو، والتطلعات الإلهية الكريمة.

الإنسان في هذه الحضارة ينشد بالأرض إلى السماء، يرتفع بها إليها، يقود الحركة فيها على ضوء قيمها، يخصبها بالخير من منهج تلك القيم، يفرشها عدلاً وأماناً وسلاماً، وفيوضات بركة بتعاليم المنهج الإلهي ووصاياه الكريمة، وأخلاقيته الرفيعة، وشريعته السمحاء الهادية العادلة المثرية.

الإنسان في هذه الحضارة لا يسقط مستواه الخلقي، ولا ينهار في معنوياته، ولا يخسر ذاته المشعة وفطرته الهادية القومية ليجد نفسه من بعد ذلك عاجزاً عن الأخذ بمنهج السماء، والإيمان بمنظومة قيمها حتى يكفر أو يستنزل السماء إلى الأرض فيكون إلهه من مستوى الطين، ومعبوده مخترعاً من حجم المادة، وهي النتيجة الحتمية لمناهج الأرض وأطروحات الإنسان البعيد عن الله، وهي النتيجة التي تنتهي إليها حضارة التراب بقصورها وجمودها وجهلها ووضاعتها.

ومن عناوين هذا الموضوع بعد الكلمة التمهيدية له:

حول الإنسان:

الحديث هنا عن الإنسان باني الحضارة، ومشيد عمارتها، والذي لابد أن يكون هو هدفها، وأن يكون محل عنايتها، وأن يكون مشروعاها الكبير، هذا الإنسان ما حقيقته؟

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»^(١) الطين بالحياة يغنى بالحركة والنمو، ويزخر بدوافع ورغائب وحاجات ومشاعر ومطامح من طبيعته المادية، فالإنسان في جزء من واقعه هو كل هذا الاتجاه المادي الذي يفرض نفسه عليه بدرجة وأخرى، ويحكم وجوده، ولا يسع أحداً التَّنَكُّرُ أو التحرر الكامل منه.

لكن الإنسان في جانب آخر منه هو نفخة الروح بما لها من إضافة تشريفية لله سبحانه تدل على أن هذه الروح لها تميزها الخاص عن روح مجدها الحيوان، وتعطيه الحركة والنمو، وتثير فيه دوافع المادة وحاجاتها ومقتضياتها، وهي روح من عند الله عز وجل كذلك،

(١) سورة ص: ٧١-٧٢.

فروحٌ تكون بها الحركة والنمو من عند الله، وروحٌ يكون به الانشداد الكبير الواعي العابد لله هي من فيضه العظيم كذلك.

الروح الأولى وهي من فضل الله تفوقها هبته الروحية للإنسان بما يتجاوز به حدود المادة، وقضاياه، ويربطه بالغيب، ويدفعه إلى التطلع إلى اكتشاف المجهول وعشق الكمال، وسمو الذات، والنظرة في الماضي البعيد، والمستقبل الممتد، ويثير فيه التطلعات الكبيرة. وهذا الواقع الجديد على المادة وما تعنيه قاضٍ بأن تتجاوز حضارة الإنسان مستوى الطين وهمومه وقضاياه، وأن تحدث نقلة هائلة في حياته عن مستوى حياة الحيوان ليس من حيث ما يتم على يدي الإنسان من عمارة الأرض فحسب وإنما - وهو الأهم - من حيث ما يتم من حركة اختيارية صاعدة في مضمونه، وسر عظمته، وهو روحه المتوهة لله، العاشقة لجلاله وجماله، ليتحول هذا الإنسان إلى واقع من الجمال والكمال وإن كان على محدودية ونهاية.



(١)

والإنسان حسب الآية نفخةً من روح الله في جسدٍ من قبضة من طين. ولا يشتبه على الناظر أن إسجاد الملائكة له بأمر الله التكريم فيه راجعٌ إلى جنبه الروح... إلى إيمانها وعلمها وأشواقها الإلهية، وأهليتها للدور الخلافي عن الله عز وجل في الأرض، وبما لهذه الروح من خلاقية وإبداع وحكمة وإعمار وعدل وإحسان كله يُفاض على الإنسان متدققاً من ربه الكريم.

وأما جنبه البدن الراجعة إلى قبضة الطين فهي مرجع الامتحان في الأمر بالسجود الذي انصاع إليه الملائكة، وواجهه إبليس بروح جاهلية تملكها الاستكبار ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(٢) وهذه الجنبه نفسها بما يتصل بها من دوافع ورغائب وشهوات ونزوات وطيش وانزلاق كانت الخلقية وراء تساؤل الملائكة بشأن خلافة آدم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ

(١) خطبة الجمعة (١٦١) ١٣ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ - ٢ يوليو ٢٠٠٤م

(٢) سورة الأعراف: ١٢.

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿١﴾ وَذَلِكَ فِي غِيبَةِ الْاَلْتِفَاتِ إِلَى أَهْلِيَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلتَّكْرِيمِ مِنْ خِلَالِ نَفْخَةِ الرُّوحِ وَخِصَائِصِهَا الْمُتَمِيزَةِ.

وقد احتاج الملائكة إلى درس إلهي تعلّق بتعليم الأسماء كلها لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مما عاجل خلفية تساؤلهم. وما تعلّم به آدم الأسماء إنما هو نفخة الروح الذّاكرة المشرقة الملهمّة الواعية، وليس قبضة الطين المعتمة المنغلقة الجامدة.

فهذا هو الإنسان باني الحضارة على الأرض معناه الكبير، قرآناً في روحه الإنسانيّة المتميزة وليس في كتلته المادية، ووجوده الطيني، وبشرته البارزة. وفي التصور الآخر المقابل الجاهل؛ قردٌ متطورٌ تطوراً لا يخرج به عن ضرورات القرد وحاجاته ورغائبه، ولا يخرج بمشكلاته ومعاناته عن معاناته ومشاكله، والعقل وأي طاقة أخرى عند الإنسان وسيلة متقدمة تخدم الضرورات والشهوات والنزوات التي يستوي فيها هو وإخوانه وأجداده القروء.



[أولاً] الإنسان هدفاً:

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...﴾^(١) الله عز وجل أفاض على هذا الإنسان الوجود برحمة منه لا لتتوقف رحمة الله عن هذا المخلوق، ولا ليشقيه إنما ليواصل رحمته به وإفاضاته عليه. الله عز وجل لم يخلق الإنسان للشقاء، إنما خلقه للسعادة، لأن يكتمل في ذاته بدرجة أكبر، لأن يصل إلى القرب الإلهي الذي لا يجد في ظله شيئاً من الشقاء.

ما طريق الرحمة لهذا الإنسان في ذاته الإنسانية؟ تقول الآية الأخرى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) المخلوق له الإنسان هو الرحمة به، هو أن تتواصل فيوضات الله تبارك وتعالى عليه، أما العبادة فطريق الاستحقاق، طريق التأهيل. هذه العبادة ماذا تفعل؟

(١) سورة هود: ١١٩.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾^(١)
يخرجهم من الظلمات إلى النور بمنهجه الحكيم الدقيق الرصين، الذي يعلم من الإنسان كل ذرة، ويعلم منه كل خلجة وكل خاطرة. يعلم منه كل قواه، وكل ما فيه من ضعف، وكل ما يعتريه من نسيان، وكل ما يعتريه من خطأ، ويعلم منه كل ما يعالج أمره، كل ما يضره وكلما ما ينفعه، ويعلم بمحيطة الضيق، وبمحيطة الكوني الواسع في كل ذرة من ذراته، وفي كل جنبه من جنباته، وفي كل تأثير من تأثيراته.

وعلى طريق هذا المنهج تقول الآية الكريمة:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢)

الآيات الكريمة تُركّز على هدف الخلق للإنسان والتربية الإلهية المتجهة به إلى ذلك الهدف. والهدف هو الرحمة بالإنسان، وتدفق الفيض الإلهي عليه، وهو فيض أول ما يتعلق بالذات الإنسانية

(١) سورة البقرة: ٢٥٧.

(٢) سورة الجمعة: ٢.



للإنسان بما يقومها من عقل متطَّلِع إلى الحق، باحثٍ عن مصدر الوجود والحياة والنور والجمال، ومن قلب لا يعطيه الطمأنينة غير الإيمان، وروح لا تسعد إلا بمعرفة الله وعبادته والانشداد إليه. وتعلِّقه بحاجات الإنسان الخارجية إنما هو من أجل كمال الإنسان في نفسه لكون الرحمة بهذا الكمال هدفاً لخلق الإنسان، وإلا فقضاء حاجة الأكل والشرب وما ماثلهما من حاجات الخارج للإنسان لا تكون غايةً من خلقه وهي حاجات بدنٍ لا يمثل حقيقة الإنسان؛ إذ أنَّ البدن المشار إليه في الآية الكريمة بالبشر مخلوق من طين، والطين لا يستمد الإنسان إشراقته وسموه منه، وإنما يستمد ذلك من نفخة الروح، والروح هي التي تزداد سموً وتقبل الخلود، وترقى في سيرها تجاه الله ﷻ.

والبدن بعد اشتداده ينحدر وينهك، وتنهدُّ قواه وتتبعثر بنيته، وتتشتت ذراته. ويحتفظ المضمون الروحي عند الإنسان بما تحقق له من نضجٍ ورشد وتبلور مع كلِّ تحولات البدن، ويبقى الإنسان يعرف ثبات ذاته الإنسانية، ووحدة شخصيته العائدة للروح في كلِّ أدوار حياته حتى لو تلف من البدن ما تلف، ورضاه عن هذه الذات لو وجدها نقية مشعة عارفة مهتدية، واعتزازه بها لا يتأثر بما يعانيه من نقص في بدنه.

تبقى أنت الكريم في ذاتك، الحقيق بالعزة في نفسك، المحترم في تقييمك، الأكبر من المادة السامقة التي تعظمك وتكبرك حين تجد من نفسك الروح المشعة، حين تجد من نفسك النية الصالحة، حين تجد من نفسك التطلعات الخيرة، حين تجد من نفسك روحاً لا تعطي إلا الخير، وتتأبى أبداً أن يصدر عنها شر.

هل أنا بدن؟ هل أنا روح؟ لي وجدانٌ يميزُ أني لست بدنًا خالصًا، ولست روحاً خالصةً في هذا الوجود، ولكني في معنای الذي يمكن أن يكون محترماً، في معنای الذي يمكن أن يكون أكبر من الجبال الشوامخ، ويمكن أن يكون مستحقاً لأن تُسخرَ له السماوات والأرض، لست هذا اللحم والدم والعصب، إنما أنا روحٌ إذا كانت تلك الروح موصولةً بالله.

هذا الإنسان الكريم هو الروح إذا كانت تلك الروح موصولةً بالله، هو القلب إذا كان ذلك القلب عارفاً بالله، هو القلب إذا كان ذلك القلب ذاكرةً لله. وليس خفياً أن نعرف من أنفسنا الإثنيينية الواضحة بالوجدان، فمن ضعف في بدنه بعد قوته، بينما زاد في عقله، وطهر روحه، ونقاء سريرته، ومعرفته بالهدى وتمسكه به، وبغضه للباطل، وانشداده للفضيلة، ونفوره من الرذيلة، وتم استيقانه بربه، وكل الحق من عنده تراه يعرف من نفسه ذلك الضعف، وهذه القوة، وأن



مركز ضعفه مباين لمركز قوته، وأنه لا يهون في نفسه بذلك الضعف، ما دام يجد من نفسه الإنسان القوي في إنسانيته.

وكذلك من عرضته القوة في البدن بعد الضعف، والوهن في الجانب الروحي بعد القوة لا يخفى عليه ما جد له في هذا وذاك، وأن ما قوي منه غير ما ضعف، وما ضعف غير ما قوي. والتركيز على إنسانية الإنسان في حضارة القرآن من دون إهمال لشؤون البدن للتأثير المتبادل، ولمصلحة الإنسان وراحته في الدنيا إلى جانب الآخرة لا تجده في حضارة المادة التي لا تركيز لها إلا على حاجات البدن، وحجم المادة في الخارج وما يرتبط بأمر الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ﴾^(١)

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ...﴾^(٢)

كتلة من لحم ودم وعصب وعضل ومجموعة أجهزة مادية تمر أياماً، شهوراً، سنوات بهذه الحياة، بهذا الوسط المادي لتتلف فيه، وتذوب

(١) سورة محمد: ١٢.

(٢) سورة الجاثية: ٢٤.

في ذراته، وينتهي كل شيء اسمه الإنسان. هذه هي نظرة الحضارة المادية، وليس شيء عندها في هذا الإنسان وراء ذلك.

(١)

[ثانياً] الإنسان موقعاً:

أ- في التصوير القرآني:

للإنسان موقعٌ في التصوير القرآني، وللإنسان موقعٌ في التصوير المادي الأرضي، فمع التصوير القرآني لموقع الإنسان:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾^(٢)
إذا كانت الآية الكريمة تعني في مضمونها جعل الإنسان خليفة في الأرض يعمل بمدد الله وبأمره وفي ضوء المنهج الذي هو من عنده ﷻ إعماراً وإصلاحاً وتطويراً لذاته، وللأرض، يكتشف، ويخترع، يصوغ ذاته على خط فطرتها، ويصوغ أوضاع الأرض على ضوء منهج الله ﷻ، فعلى هذا تكون الآية قد رفعت من شأن الإنسان ما

(١) خطبة الجمعة (١٦٢) ٢٠ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ - ٩ يوليو ٢٠٠٤م

(٢) سورة البقرة: ٣٠.



لم ترفع شأن غيره. وهذا يعني الاستعدادات الهائلة عند هذا الإنسان بما يؤهله لهذا الدور الخلافي الكبير؛ هذا الدور المتصرف في الأشياء، المتحمل مسؤولية تطويرها ووضعها على خطها العابد لله ﷻ عبادة ترجع إلى عبادة الإنسان لبارئه. والإنسان بتحميله أمانة الإبداع، والتطوير، والارتقاء بالأوضاع الأرضية، وبالأوضاع الإنسانية، وتفعيل قدراته، وإمكاناته بما يعطيه موقعا متقدما جداً يكون قد حمل مسؤولية تجعله في مقدمة مخلوقات كثيرة، ومفضلاً على كثير ممن خلق الله عز وجل تفضيلاً.

هذا الخليفة عبد الله، يعمل بمجد الله، ويأتمر بأمر الله، وينتهي بنهي الله، وهو بدوره الخلافي لم يتجاوز موقع العبودية، ولكنه بهذا الموقع متقدماً جداً من بين مخلوقات الله ﷻ. لم يحمل مخلوق من المخلوقات هذا الدور معتمداً في عنصر من عناصره على إرادته. إسناد هذا الدور للإنسان، وجعل إرادته عنصراً من عناصر فاعلية هذا الدور، ووصول هذا الدور إلى أهدافه يعني إعطاءاً لهذا المخلوق تشبهاً بالله عز وجل في صفة الفاعلية الإرادية، وهذا التشبه لم يرتفع إلى مستواه المتوفر في طبيعة الإنسان حتى الملك.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) أخذ إبليس على نفسه أن يلجم بني آدم، أن يفودهم إلى خطّ آخر غير الخط العابد لله سبحانه، إلى خط الانحراف منحدرًا بهم عن صراط الاستقامة، حنقًا وحسدًا وحقدًا لتكريم آدم المخلوق من طين عليه، وهو المخلوق من نار. والجن هو أقرب ما يمكن أن يقومه الإنسان أو يضارعه بين الأنواع بعد الملائكة، فتكريم الإنسان عليه تكريمٌ له على سائر تلك الأنواع.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٢) الآية الكريمة تثبت تفضيل الإنسان على كثير ممن خلق الله عز وجل تفضيلًا، وهناك نقاش في تفضيل الإنسان على الملائكة وعدم تفضيله عليهم بحسب استعداداته وقابلياته.

وتفضيل الإنسان على الملائكة في النتيجة إنما يكون لو استقام على الدرب، وكان العابد لله عز وجل، وتمشّت إرادته في ضوء إرادة الله شعورًا وسلوكًا، ولا يقول أحدٌ على الإطلاق بأن الفاسق - فضلًا

(١) سورة الإسراء: ٦٢.

(٢) سورة الإسراء: ٧٠.



عن الكافر - من الناس أفضل من الملك فإن مقرر هذا الفاسق ما لم يرحم الله هو النار، والملك حظّه الجنة. فإذا كان تفضيل لنوع الإنسان على الملك نتيجة فيتم ذلك عبر النموذج الإنساني الرفيع من مستوى الرسل والأنبياء والأولياء العظام.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً...﴾^(١) تسخير ما في السماوات والأرض للإنسان يعني موقعاً متقدماً أعطي لهذا الإنسان من قبل الله ﷻ. نحن مسخرون بدرجة ما للحشرات والديدان، فإن الحشرات والديدان تأكل على موارد الإنسان وجهوده، وهناك نبات يقوم بجهود الإنسان، وحيوان يرفع برعاية الإنسان، لكن أن يسخر ما في السماوات وما في الأرض للإنسان فهذا ما انفرد به من فضل الله ﷻ.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ «سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»^(٢) وليكن من هذا التفكير أن يعرف الإنسان موقعه وقيّمته عند الله ﷻ.

(١) سورة لقمان: ٢٠.

(٢) سورة المجاثية: ١٢-١٣.

لو استقام، وأن يعرف ما عليه من شكر الله ﷻ، وما يتحمّله هذا المخلوق من مسؤولية ضخمة، وقد سُخر له ما في السماوات والأرض من خلق الله. من يتحمل أمانة مدرسة صغيرة غير من يتحمل أمانة إقليم، ومن يتحمل أمانة إقليم غير من يتحمل أمانة الأرض، قد حمّلت أيها الإنسان أمانة ما في السماوات والأرض حيث سُخر لك كل ذلك.

وهناك موقع كبير للإنسان على مستوى الاستعداد، وقد يخسره بالانحراف عن خط الله. وهناك موقع كبير فعليّ يمكن أن يتمتع به حقاً وليس له إلا مقياس واحد يجده في الآية الكريمة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ^(١) فمن لا تقوى له يخسر كل الكرامة الفطرية، ومن كان أكثر تقدماً في التقوى كان الأكرم، فالإنسان وهو مؤهل إلى أن يكون المخلوق الكريم فعلاً عند الله يمكن أن يخسر كل أسباب الكرامة، ويخسر كل استعداداته وقابلياته لتبوء هذا الموقع بل ينقلب في شأنه إلى أن يكون وقوداً من وقود النار.



ب- في النظرة المادية:

[التصوير الأول]

الإنسان في أحد تصويريه في النظرة المادية سيدٌ مطلق، حرٌّ في تصرفه، لا يعبدُ أحداً، ولا يخضع لأمرٍ أو نهْي. يتصرف في أشياء الكون بلا ضابطة، حكمه فوق كلِّ حكم، رأيه فوق كلِّ رأي، سيادته فوق كلِّ سيادة.

لكن نقول هذا السيد المطلق في التصوير المادي ولادته من غير إذنه، موته من غير إذنه، تقدير حجمه، تقدير عقله، تقدير نفسيته، صورته، مستوى استعداداته ليس بإذنه. يأتي قوياً ويأتي ضعيفاً، يأتي ذكياً ويأتي غيبياً، يأتي على أحجام، ويأتي على أوزان من حيث العقل، من حيث النفسية، من حيث كلِّ الصفات، وليس هو في شيء من ذلك قد استأذن، أو كان له دخلٌ وقرارٌ في تقرير مصيره. المكروب يصصره، البراكين تنسفه وتحرقه، الزلازل تطمره، الريح تهلكه، المطر يغرقه، الرمال تدفنه، الهموم تقتله، اليأس يستولي عليه، لا يملك قوانين تفكيره، ولا يملك شيئاً من قوانين حياته، إذا طوّر إنما يطوّر على أساس من قوانين وضعها الله ﷻ، ومكّنه من معرفتها، ومن الاستفادة منها.

نعم، إنه لا يملك أسباب حياته، محكومٌ في خلقه وموته ومرضه وصحته، وفي كلِّ القوانين التي تعتمد عليها حياته، إذاً كيف يكون هو السيد المطلق؟! إذا كان هذا وزنه من ناحية تكوينية فكيف يكون هو السيد المطلق من ناحية تشريعية؟ وكيف يحكم أن لا قوة فوق قوته، وأن لا ملك فوق ملكه، وأن لا سيادة فوق سيادته، وهو المحكوم في كلِّ شأن من شأنه؟!

هذه النظرة واهمةٌ كاذبةٌ مستخفةٌ للإنسان، توقفه في الغرور، وتدمر حياته بهذا الغرور. نظرةٌ مهلكة، غير علمية، وغير موضوعية، نظرة خيالية، نظرة فرض بلا واقع.

[التصوير الثاني]

في التصوير الثاني هذا الإنسان عليه أن يعبد الشجر والحجر، والشمس والقمر، والصنم والبقر. نظرةٌ مذلةٌ مهينةٌ ساحقةٌ مخزيةٌ دونيةٌ.



ذاك هو التصوّر القرآني لموقع الإنسان، وهذا هو التصوير المادي بشقيه للإنسان وكلا التصويرين الماديين للإنسان تصوير يسحقه ويهلكه ويدمره.

النظرة الأولى التي تعطي للإنسان السيادة المطلقة تتركز في نفوس الأصحاء الأقوياء، أما المريض المنهك الضعيف لا يسعه أن يشعر بهذا الشعور. هذا الشعور إنما يمكن أن يستغفل إنسانا في لحظة الفتوة والقوة والحيوية والنشاط والغنى، أما إذا جاءه المرض أذله، وإذا جاءه الفقر أذله، وإذا جاءه الخوف أذله، وعلمه أنه عبد، وأنه صغير، وأن لا يملك من أمر نفسه شيئا، وإذا جاءه الهم أدبه. في حالات القوة المادية المنتفشة يمكن أن تتزعزع هذه النظرة الوهمية، وحيث تتزعزع هذه النظرة عند نفر من الناس يسحقون الخلق، ويستعبدونهم ويحولونهم إلى أدوات رخيصة للاستغلال. على أن هؤلاء المستكبرين الطغاة الذين يتربى طغيانهم واستكبارهم في ظل هذه النظرة المادية يخرجون عن خط الإنسانية، ويلقون مصير الشقاء الدائم. وهم يستثيرون الناس من بعد ذلك على أنفسهم ليجدوا حياتهم مطوقة بالخوف بحيث تنفذ كل احتياطاتهم الأمنية ولا توفر لهم الأمن.

أما الشعور الثاني فهو ساحقٌ - كما تقدم - ماحقٌ، يهيئ الإنسان إلى أن يستعبد ويسترخص ويستتهان به. والحمد لله أن هداًنا للإيمان.

(١)

وحضارة الطين إنما تلتفت للإنسان بما هو بشر من طين ومن هذه الحيثية. أما ما به إنسانيته العالية فتأخذه وسيلةً لجانب ماديته. وحضارة الإنسان تتوجه بهما الكبير لإنسانية الإنسان، وتوفيه بالعدل كلَّ حقوق بدنه.

والآن إلى هذا العنوان الفرعي:

(١) خطبة الجمعة (١٦٣) ٢٨ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ - ١٦ يوليو ٢٠٠٤م



[ثالثاً] الإنسان دوراً:

أ- في حضارة الإنسان:

وهي الحضارة التي يصوغها القرآن والإسلام من أجل إنسانية الإنسان وسعادته.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾^(١)
للإنسان دورٌ محدودٌ تابعٌ لله ﷻ في الخالقية والتغيير والتطوير النافع لنفسه ولغيره، وفي تحقيق العدل والإحسان والرحمة والخير في الأرض.

الإنسان مهيبٌ لأن يجاري الله عز وجل مجارةً عمليةً محدودةً وبفيض من الله ﷻ في التنزين بأسماء الله الحسنى حسب ما يطيقه وجوده المحدود، وفي حيثيات معينة، وجهات مخصوصة، أما أسماء الله حسنى فيستحيل على الإنسان أن يتنزين بها كالقديم والدائم.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢)
هذا دور الإنسان في التصوير القرآني. إقامة الصلاة توجه خالص من الذات

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) سورة الحج: ١٤.

الإنسانية لله يربّيها ويصوغها ويصنع خيرها وكماها، والصلاة مصنع للذات الإنسان تصنعة صناعة سامية عالية، تولد فيه القوة الخيرة، وترفع من مستواه، وتجعله على الطريق الصحيح، تسمو به، وتعطيه الغنى، وتنقله من ضيق النظرة إلى سعة الرؤية، ومن الشعور الخائق إلى الشعور الفسيح، هذا الدور البناء؛ دور الإعمار والصناعة للذات الإنسانية تقوم به الصلاة وعلى الإنسان أن يمارس الصلاة ليصنع ذاته.

وإيتاء الزكاة دورٌ بناءٌ آخر يقوم على العطاء، وحبّ الخير، والفاعلية القويمة الكريمة في الحياة، فمن دور الإنسان أن يعطي، أن يفيض؛ والله عز وجل هو المعطي المفيض بالأصل، والإنسان في الأرض محاولته المجادة الصحيحة أن يتحلّى بأسماء الله الحسنى ما استطاع، فحتى يتربى الإنسان على العطاء عليه أن يستغني ما استطاع أن يستغني، وعليه أن يُعطي ما استطاع أن يعطي لكي يكون مفيضاً في الأرض خيراً وبركة وهدى.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو دور بناء آخر يصنع الأوضاع الإنسانية الصحيحة سليمةً من آفة الانحراف ويقومها كلما عرضها شيء من الميل عن الخطّ اللائق. فنجد الإنسان هنا في التصوير القرآني مقيماً للصلاة، مؤتياً للزكاة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر



ليكون الخليفة عن الله في الأرض وليمارس دور البناء والإصلاح وتقويم الأوضاع.

﴿.. وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..﴾^(١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾^(٢)

الآية الأولى تحدد جانباً من دور الإنسان، والإنسان في المفروض الإسلامي عليه أن يكون مؤمناً وصاحب دور قائم على الإيمان. وعلى خط وظيفة الإنسان، ودوره في الأرض جاءت الرسل ونزلت الكتب، فإنما جاءت الرسل ونزلت الكتب لتثير وتنشط وتحافظ على الدور الإنساني الأصل الذي خلق له الإنسان.

ما هو هذا الدور؟

من هذا الدور إقامة القسط

﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٣) فمطلوب من الناس كل الناس أن يقوموا بالعدل، وإقامة العدل ليس في جنبه من الجنبات، وليس

(١) سورة الحديد: ٢٥.

(٢) سورة النساء: ١٣٥.

(٣) سورة الحديد: ٢٥.

على صعيدٍ من الصُّعْدِ فقط. إقامة العدل في الفكر، في الشعور، في الأوضاع الخارجية، في الأوضاع النفسية الداخلية، في كلِّ مساحة الحياة، وفي كلِّ مناحي النشاط.

﴿.. وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ..﴾^(١)
ويُستقرب عند بعضهم في الميزان أنه الإسلام، وأن الميزان تفسيرٌ للكتاب، وليس ببعيد، وإن كان التأسيس أولى من التأكيد إلا أن تقوم قرينة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾^(٢)
فلتكونوا على حركة، ولتكونوا على نشاط، ولتكونوا إيجابيين دائماً، لا قاعدين. كونوا قائمين، بل قوامين بالقسط شهداء لله شهادتكم لا تنظر لغير الله ﷻ. وأقصى درجات القسط، وأتم درجات العدل هو أن يأتي الشعور والسلوك غير ناظر إلا لوجه الله ﷻ. فحيث ينظر السلوك والشعور لله وحده لن يميل عن الحق قيد شعرة.

(١) سورة الحديد: ٢٥.

(٢) سورة النساء: ١٠٠.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾^(١)
 فالحركة والقيام والجد في البناء والاعمار والتصحيح والتغيير
 والتطوير مطلب إسلامي، والإنسان جاء الأرض لا لينام، جاء
 الأرض لا ليتكاسل، لا ليسترخي، جاء للحركة، والحركة إيمارية
 تصحيحية تغييرية. وهذه الحركة لا تكون للإعمار بحق، وللتصحيح
 وللتغيير الإيجابي إلا بأن تكون حركة في اتجاه الله، بأن تكون حركة
 صاعدة، وليس من حركة صاعدة إلا إذا اتجهت لله ﷻ ﴿كُونُوا
 قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ لا للشيطان.

تقوم من فراشك صباحاً لله، ولا تقوم من فراشك صباحاً للشيطان،
 بنية سوء، وللحركة الإفسادية. تقوم من الفراش صباحاً ملوك
 الشعور بالحب لله ولمن أطاعه، وملوك الشعور بالشفقة على
 الإنسانية، ملوك البنية صالحة، ملوك الفاعلية الخيرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ فليس من جمود ولا
 همود ولا كسل، إنما هي حركة ونشاط وفاعلية، وهذه الفاعلية وهذا
 النشاط لا بد أن يكونا صاعدين، ولا صعود في حركة ولا نشاط إلا
 بأن يكون اتجاهاً لله ومن أجله، وعلى منهجه.

﴿شُهِدَاءٌ بِالْقِسْطِ﴾ شهداء بالعدل، فلا ميل عند الفرد المسلم ولا عند الأمة المسلمة عن العدل، والشهادة بالقسط على الأم والأب وعلى النفس. حركة على منهج الله والهدف هو رضوانه، حركة تحقق العدل في كل أبعاد الذات الإنسانية، وجوها الداخلي، وتحقيق العدل في كل مساحة الحياة الخارجية، وتحقيق الشهادة القويمة العادلة ابتغاء وجه الله، وكل ذلك يمثل تجسيدا للدور الذي كلف به الإنسان في الأرض، وهو بهذا يبني نفسه، ويطورها، ويتكامل من خلال حركته الصاعدة لله ﷻ.

[العمل الصالح]

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾^(١)

الإنسان نشطاً، الإنسان متحركاً، الإنسان صانعاً زارعاً، الإنسان منتجا على غير طريق الله في خسر.

(١) سورة العصر.



من هو الإنسان الرابع؟

صاحب هذا الدور: دوره الداخلي إيمان بالله ﷻ وبملائكته ورسله واليوم الآخر، وهو إيمان بالحق. حركة النفس ونشاطها وحيويتها إنما تكون لون حركة تتسق وطبيعتها، فالذات الإنسانية حركتها الداخلية الذاتية ليست في صورة إنتاج مصانع وزراعة وتكنولوجيا متقدمة. النفس في حركتها الداخلية إنتاجها أن تصل إلى رؤية الحق، أن ترتفع بمستواها إلى حد القدرة على التمسك بالحق، أن تحتضن الحق وتتفاعل معه، وتذوب فيه، وتستجيب له وتعطيه الحاكمة الكاملة على داخلها.

وللإنسان حركة في الخارج تتمثل في البناء وفي الصناعة وفي غيرها إما بهدف سوء أو بهدف خير، والحركة على يد الإنسان المؤمن دائماً هادفة هدف الخير.

[التواصي]

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ حيث تتخلق نفس مؤمنة تمتلك رؤية كونية حقيقية صادقة، وحيث تهتدي نفس إلى الله ﷻ فتستضيء بهداه، وتتعرف على شيء من أسمائه الحسنى تكون جميلة فلا يصدر منها إلا

الجميل بقدر ما آمنت، وبقدر ما عرفت، وبقدر ما كانت على استجابة لله ﷻ، فيأتي العمل الصالح، ويأتي التواصي بالحق، ويأتي التواصي بالصبر.

فالعمل الصالح دور إنساني داخلي وخارجي إيجابي خير. والتواصي بالحق... التواصي بالتمسك بالطرح الإلهي الصحيح... التواصي بالنظرية الصحيحة، وبالموقف العملي الصحيح، تواص بالدين في داخل النفس، وتواص بالدين في خارج النفس، وتواص، باحتضان كلمة الوحي، وبالتمسك بها على مستوى الفكر والشعور والسلوك، وهو من دور الإنسان في هذه الحياة، والتواصي بالصبر على طريق الله، وتحمل تبعات هذا الطريق البناء الصاعد وظيفه من وظائف الإيمان والإنسان على الأرض.

الإنسان المسلم يبني نفسيته في ضوء إيمانه، ويسعى جادا لبناء نفسية الآخرين في ضوء هذا الإيمان. هذا هو دور الإنسان في التصوير القرآني فماذا تريدون من الحضارة الإسلامية أن تتعامل، فأياً تعامل من الحضارة الإسلامية مع الإنسان في جانبه الروحي، وفي جانب الطين ترتقبون؟! إنها حضارة الروح وإن كانت أنجح الحضارات في إسعاد البدن كذلك.



(١)

ب - في تصوير حضارة الطين:

هذه مجموعة من خطابات الرسل لأقوام الحضارة المادية المنصرفين للنشاط المادي، المستغرقين فيه، المستهلكين لهم، المبهورين بعطائه، المتفوقين في دائرته، الذين يأكلهم الزمن من أجله، ويستوون هم والحيوانات التي يستخدمونها على طريقه، فيأكلون كما تأكل، ويشربون كما تشرب، ويتمتعون كما تتمتع لينتهوا نهايتها ولكن ليس كحسابهم حساب، وليس كعقابهم عقاب. هذه الخطابات التي ترسم واقعهم المادي المتطرف تضعنا أمام تصور منحرف عن دور الإنسان كان يملك عليهم تفكيرهم، وشعورهم، ويحركهم على طريق الانحراف والزيغ عن الصراط.

(١) خطبة الجمعة (١٦٤) ٥ جمادى الثاني ١٤٢٥هـ - ٢٣ يوليو ٢٠٠٤م

[من خطابات الرسل لأقوام الحضارة المادية]

تقرؤون في سورة الشعراء، خطابات لعدد من أنبياء الله ورسله
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لأقوامهم المكذبين للرسل:

١- هود لعاد:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تُخْلَدُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿٣﴾﴾^(١)

الريع: المكان المرتفع. والمصانع: من معانيها في اللغة الحصون. تُقدم
الآيات ثلاث صور من دور الإنسان في تقدير حضارة الطين:

أ- إنه لحضارة تقيم عمارة عابثة، غير هادفة، متجاوزة للدور
المطلوب منها، مستنزفة لهم الإنسان وفكره وجهده... عمارة تأخذ
به بعيداً عن هدفه، وبناء روحه، والإعداد لمستقبله، وتلهيه عن
الارتفاع بمستوى ما يبقى، وما هو الأهم، وما هو الأسمى من ذاته.

ب- ركونً بالكامل إلى المادة واحتواءً بها إلى حد الوهم، وفوق ما
تطبيق حتى ليطلبوا الخلود من عطائها، على أن تقدم المادة على

(١) سورة الشعراء: ١٢٨.



مسار بعيد عن القيم يُربك الحياة ويُقلقها ويتهدها، بل ويزرع الرعب، ويعصف بوجود الإنسان، وما أقامته يده من وسائل الاحتماء والراحة والسعادة التي يتوهمها. فهذا التقدم بلا دين قويم وبلا رشد إنساني يبنيه منهج الإيمان الحق فوق أنه لا يحمي، يهدم. يُشقي، ويحطم.

ج - عدوانية وإظهار لغطرسة القوة المجردة عن القيم، والمشبعة بروح الغرور والجبروت الموهوم. ولا تأخذ القوة والشجاعة دورهما البناء على يد التربية المادية، وما تقيمه في النفس من تصور خاطئ لدور الإنسان في الحياة أبداً، وهما على يد التربية الروحية وفي التصور الصائب لرد الظلم عن الذات وعن الغير، ونشر العدل، وإقامة الحق، وسد أبواب الشر، وسعادة الإنسان فرداً ومجتمعاً.

٢- صالح لثمود:

﴿أَتَرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمَنِينَ﴾ «فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» «وَزُرُوعٍ
وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هُضِيمٌ» «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ» «
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا» «وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ» «الَّذِينَ
يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ»^(١)

تتحدث الآيات الكريمة عن:

١- واقع زراعي مزدهر وجنات وراءها جهد كبير، ومثابرة في العمل، وخبرة. ينضاف إلى ذلك تقدم عمراني وفن بما يستتبعه ذلك من أشرف وبطير ومفاخرة حيث لا تقوى تهذب النفوس، وحيث الغياب الكامل للمنهج السماوي الذي يقود حركة الحياة على الأرض، ويصنع الإنسان السوي العادل الذي لا تستخفه الأوضاع المادية المتقدمة.

٢- قيادة مسرفة كثيرة التعدي والتجاوز لحدود الله، ومقتضى الفطرة، وهدايات السماء، وإرشادات العقل. وهي قيادة تنقلب على يدها وظيفه الإنسان في الحياة، فتخرج من حد الإصلاح إلى الإفساد

(١) سورة الشعراء: ١٤٦-١٥٢.



والتخريب وتشويه النفوس والأوضاع والعلاقات، وتشذ عن الخط الكوني العام وهو خط الاستجابة للإرادة الإلهية الحكيمة.

وأبشع الجرائم التي تتم على يد سياسة الإفساد: استهداف الإنسان بحرفه وتخريبه، لما يسببه ذلك من انهيار لكل وضع إنساني صالح، وتحويل لكل الآليات المتوفرة إلى آليات شقاء وعذاب، ولأنه بعد أن يفسد الإنسان مركز الغرض من الكون المسخر له لا قيمة لأي إصلاح آخر.

هذا الوضع المادي المنفلت بطرفيه من مسرفين مفسدين يقودون حركة المجتمع على غير خط الله، ويمجسدون دوراً محرفاً في الحياة، ومن أتباع مستسلمين لهذه القيادة استوجب بعث رسالة ورسول من الله العزيز الحكيم للتصحيح والتقويم والتغيير، وعقاباً عاجلاً للاستكبار على الرسالة والرسول.

٣- لوطٌ لقومه:

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ^(١)

وهذا تجسيد ومظهر آخر من مظاهر المادية المنحرفة التي تصبغ دور الإنسان في حضارة الطين، وتتجاوز به الخطوط الفطرية الأصيلة في جانبها المعنوي والقيمي، وتَسِمُهُ بالتعدي والانحراف عن الضوابط الإلهية في تكوين النفس، ورسالات السماء التي تصون قيمة الحياة، وترتفع بمستوى الإنسان ودوره فيها، وتحميه من الانحدار.

٤- شعيبٌ لأصحاب الأيكة:

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾^(٢)

وخطاب شعيب عليه السلام يعالج نظاماً اقتصادياً جائراً لا يقيم وزناً للإنسان ولا دين. كان يستحوذ على حياة المخاطبين، ويستنفذ

(١) سورة الشعراء: ١٦٥-١٦٦.

(٢) سورة الشعراء: ١٨١-١٨٣.



جهدهم، ويمثل لوناً من ألوان الفساد القذر، ويستبيح جهود الآخرين الكادحة، وثمار أتعابهم ونصيبهم وعرقهم لبذخ القلة المسترخية، وحرمان القاعدة العريضة في مجتمع الإنسان. ووراء هذا النظام المجائر تصور خاطئ عن دور الإنسان في الحياة يتمثل في تكديس المادة، والانصراف إليها، والاستسلام لشهوات البدن والانغماس فيها إلى حد الذوبان، وهو تصور أجني عن أجواء الايمان ورؤاه ومشاعره وطموحاته.

وهكذا توقفنا الآيات الكريمة أمام تصور أرضي منحدر لدور الإنسان في هذه الحياة، وهو أن يكب على الأرض، أن يتمرغ فيها، أن تذوب كل مشاعره، وأفكاره، وطموحاته في ذرات ترابها.

(١)

الإنسان مسؤوليّة:

أ- في حضارة الإنسان.

ماذا تقول حضارة الإنسان عن الإنسان مسؤولية؟

وحضارة الإنسان هي حضارةٌ خطط لها الإسلام وأقامها القرآن وأتمّها الرسول صلى الله عليه وآله، وأتمّها في آخر حلقة من حلقاتها التي توالى على يد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

تقول هذه الحضارة عن إنسانٍ من حيث المسؤولية في أصدق كتابٍ على الأرض، وكلمات من كلمات السماء:

(١) خطبة الجمعة (١٦٦) ٢ شعبان ١٤٢٥هـ — ١٧ سبتمبر ٢٠٠٤م - بعد انقطاع بسبب السفر. وكانت الخطبة السابقة / الجمعة (١٦٥) ٢٥ رجب ١٤٢٥هـ - ١٠ سبتمبر ٢٠٠٤م . (الكلام في وحدة الدين والتفرّق فيه)

﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(١)
وَلَقَدْ فْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ^(٢).

داركم دار امتحان، تتجلى فيها الذوات طيبة أو خبيثة من خلال تجربة حياة تعيشونها على الأرض، تقيمون من خلالها الحق أو تهدمون، تشيدون الباطل أو تناهضونه - الحق في أنفسكم وفي الخارج، الباطل في أنفسكم أو الخارج - . والامتحان مستبطن لأعلى درجات المسؤولية، فغير المسؤول لا يمتحن، والذي يصهره الامتحان ويجلي معدنه إنما هو إنسان.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٣) لن يتفلت أحد، ولا يملك أحد أن يفلت من قبضة الله، من حساب الله، من جزاء الله على سيئاته على الإطلاق. ولا مسؤولية من غير حساب، ولا قيمة لحساب لا يعني جزاءاً، فإن لم يستتبع جزاءاً فهو في حده لابد أن يمثل لونا من الجزاء. نعم لا مسؤولية من غير جزاء، وقد يكون الحساب العسير جزاءاً، وقد

(١) سورة العنكبوت: ٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٤.

يستتبع الحساب جزاءً مستقلاً، وحساب الآخرة مستتبعٌ جزاءً وما أعظمه من جزاء.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ..﴾، ليس يا أيها المؤمن!

بما أنك إنسان، بمخزونك الإنساني، بما أودعت من عقل، بما ألهمت من فطرة، بما حملت من ضمير، بما لك من إرادة، بما أعطيت من رؤية، بما جئت عليه الحياة من تكليف ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ - أنت وطاقتك وطبيعتك - كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا - واثبوره وا ويلاه! - ﴾ ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾^(١)، ناراً تتلظى. الكدح يقولون عنه بأنه السعي، سعي مع معاناة، سعي في جهد، سعي جاهد يستتبع جهداً، والجهد التعب، والجهد الطاقة.

﴿.. إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ..﴾ الحياة مسرح كدح، مسرح معاناة، مسرح مكابدة وعمل جاهد. يا أيها الإنسان قد تكدح لشقائقك، وقد تكدح لسعادتك. وما أشده من غباء، وما أشده من ضلال أن

(١) سورة الانشقاق: ٦-١٢.



يقضي الإنسان حياته جاهداً متعباً مرهقاً نصّباً، لكن من أجل أن يشقى، من أجل أن ينتهي إلى النار. يخترع، يبتدع، يبني قصوراً، يحارب، يعمل ليلاً ونهاراً، من أجل أن يشقى، من أجل أن يخزي، من أجل أن يتعذب عذاب الأبدي. وقد يكون هذا الكدح كدح سعادة، وما أجمل أن يكدح الإنسان لغاية السعادة، إنه كدح شهوي، وجهد مرضي، وجهد لا يشقى إذا كان منتهاه السعادة.

أنت بكدحك، بما ينتهي إليه كدحك من أوزار، بما ينتهي إليه كدحك من أرباح، لابد أن تنتهي إلى الله، المرجع إليه لا إلى غيره. لن تجد سبيلاً تسلك بك غداً إلى غير الله، وتفرك بك من عدالة الله، وتقدم لك ملجأً دون الله.

ويأتي الجزاء ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾^(١) فيه تخفيف، فيه مساهلة، فيه تيسير، فيه رحمة، فيه تكريم. ﴿ .. وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾^(٢) قالوا عن أهله في تفسير من تفاسيرهم أنهم الحور والغلمان وفي آخر الملاء الطاهر، الذين يصير إليهم في الجنة.

(١) سورة الانشقاق: ٧-٨.

(٢) سورة الانشقاق: ٩.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١) «فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا»،
 نهاية الكدح والشوط الطويل والمعاناة المرة هو الدعوة للثبور. نتيجة
 العقلية الضخمة! الجهد المستمر، العبقرية الكبيرة، الشهرة العريضة،
 البناء الحضاري المادي السامق الرفيع، الانتصارات، كسح الآخرين،
 دعوة للثبور. ﴿.. وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (٢).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (٣) جد لا هزل،
 مسؤولية لا تسليب، حساب لا إهمال. وتركيز فكر المسؤولية
 والإحساس العميق بها، أرضية الشخصية الخلقية المتحملة المجادة
 النشطة، المراقبة لذاتها، الناظرة ليومها وغدها، المحاسبة لداخلها
 وخارجها، الناهضة بأداء أماناتها، المنسقة لخطاها على خط هدفها،
 المقيمة للحق، المقاومة للباطل، الساعية بالخير، المحاربة للشر. كل
 ذلك لا يعتريه شك ولا تدخله ريبة حينما تكون المسؤولية أمام

(١) سورة الانشقاق: ١٠-١١.

(٢) سورة المؤمنون: ١١٥.

(٣) سورة الأنبياء: ١٦.



الخالق العظيم، وهي مسئوليةٌ مصيريةٌ حاسمةٌ تنتهي بسعادة الأبد أو شقاء الخلود.

ب- في حضارة الطين:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾^(١) الذين كفروا أصحابُ حضارة الطين، دعائها، مقيموها، يرون خلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً، عبثاً، لهواً، بلا هدف، يخلق ويهلك، يقيم ويطيح، يبني ويهدم بلا هدف. صانعٌ صغيرٌ في الأرض لا يصنع كوزاً بلا هدف، لا يقيم كوخاً بلا هدف! ربما عبثَ الطفلُ. لكنّ بالغاً رشيداً لا يعبث بصناعته وزراعته.

الإنسان يقيم مصانعه لا للآخرة، يقيم حضارته لا للآخرة ولكنه في حسبانته أنه هادف، فهو وإن لم يكن الهادف الصحيح، إلا أنه في حسبانته أنه هادف، والله غير هادف؟! ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.

(١) سورة ص: ٢٧.

إنسانٌ يرى كلَّ ما حوله قد خُلِقَ عبثاً، وهو ممن خُلِقَ عبثاً، يحمل النظرة العبثية، يرى الحياة هُواءاً، لا يقيم للكون وزناً، لا يرى عقلاً مدبراً لهذا الكون، ولا عقاباً ولا حساباً.

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾^(١) كلمة السماء، ووحى الله يقابل باللعب، بروح عابثة، بروح هازلة وهازئة، فليس من جدٍّ بعد ذلك. الكلمة تأتي من حق تحترم، إذا كانت كلمة الله إنما تقابل بالهزل والهزل واللاجد؟!!

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌ..﴾^(٢)

افصل الحياة الدنيا عن الآخرة تكن قد فصلتها عن الهدف، تكن قد اتخذتها هُواءاً ولعباً، قد حولتها هزلاً وعبثاً، وإن أقمت عليها حضارة المادة شامخة سامقة قوية. النظرة التي تتجمد عند الدنيا لا تولد شعوراً بالمسؤولية، ولا تكون رحماً لنظرة خلقية، وروح مراقبة محاسبة جادة. النظرة التي تتجمد عند الدنيا رحمٌ لا يلد إلا العبثية

(١) سورة الأنبياء: ٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٤.



واللاهادية، ويولد العدوانية، والاستغلالية، وانتهاك الحقوق والهزو بالمقدسات والمقدرات، وسحق كرامة الإنسان.

الآية الكريمة تقول عن الكفار: ﴿فَذَرَّهُمْ يُخَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾. ^(١) الكفار يبنون، يزرعون، يحاربون، ينتصرون، يقيمون حضارةً شاهدةً عن الإبداع، والآية الكريمة تقول: ﴿فَذَرَّهُمْ يُخَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا﴾، نعم كل ذلك لعبٌ ما انفصل عن هادفية الحياة. وهدف الحياة لا يسقط فيها، ولا يقع في دائرتها، ولا تجده في نقطة من مداها. هدف الحياة لا بد أن يكون في طول مدى الحياة، وغاية كل شيء إنما تأتي في منتهاه.

هذه الحضارة المادية البراقة الأخاذة بكل ما فيها من جدٍّ مادي، وتخطيطٍ واكتشافٍ وصراعاتٍ سياسيةٍ وحربٍ وسلمٍ وتقدمٍ، بلا انسجامٍ مع الغاية التي أهل إليها الإنسان، والهدف الذي تناسب معه قابلياته واستعداداته الضخمة الخيرة، معدودةٌ في نظر القرآن لعباً ولهاواً.

(١) سورة الزخرف: ٨٣.

﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾^(١) سباقٌ في الأموال، سباقٌ في الأولاد، سباقٌ في خيرات الدنيا. هو ما انفصل عن هدف الآخرة. وهذا خطابٌ لعادٍ وقد انصرفوا عن الله، وكانت عقليتهم ونفسياتهم مع حضارة الطين ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾^(٢) بناءات شامخة، صلبة، قوية، شاهدة على التصميم والإرادة القوية، شاهدة على الإبداع والصبر والمجاهدة والمعاناة، تقول الآية الكريمة عنها، عبث... لماذا؟! لأنها فاقدة لهادفية الحياة.

(١) سورة التكاثر: ١.

(٢) سورة الشعراء: ١٢٨.

الفصل الرابع

الحضارتان والإنسان

في قوته وضعفه

- الانسان في قوته وضعفه.
- الحضارتان وصناعة الإنسان.
- كيف يحمي الإنسان نفسه من الهزيمة.
- الإسلام وصناعة القوة.
- خسائر إنسان الحضارة المادية.

(١)

[الفصل الرابع :

الحضارتان والإنسان في قوته وضعفه.]

الحضارتان والقوة:

أي الحضارتين للقوة؟ وأيها للضعف؟ وأي قوة وأي ضعف؟

ويُتناول هذا على أكثر من صعيد: الإنسان في داخله، الإنسان في أوضاعه المادية المصنوعة على يده، الإنسان في علاقاته بأخيه

(١) خطبة الجمعة (١٦٧) ٩ شعبان ١٤٢٥هـ - ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٤م



الإنسان. وقبل ذلك نحاول أن نقف على نظرة الإسلام للإنسان في جانب قوته وضعفه، والنظرة الأخرى له في هذا الجانب نفسه.

الإنسان في قوته وضعفه:

السؤال هنا: الإنسان في حد ذاته خلقة قوي أو ضعيف؟

للإنسان طاقات و مواهب وهدايات وإرادة وإنجازات ضخمة في نفسه وعلى الأرض، وليس أدل على كفاءاته في نظر الإسلام من موقع الخلافة، ومسؤولية التكليف التي أنيطت به، وهو المخلوق في أحسن تقويم يؤهله لأن يسبق بمستواه الكثير الكثير من الخلائق ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(١) وهو ليس تقويم بدن بقدر ما هو تقويم ذات معنوية إنسانية.

ولكن برغم طاقاته ومواهبه وهداياته وإنجازاته فيه ضعف يحتاج معه إلى تربية صالحة، وحضارة كريمة، ومنهج قويم، يعالج فيه هذا الضعف، ويثير فيه عوامل القوة، وكوامن النهوض، وأسرار العظمة.

ولك هذه الآيات الكريمة عن ضعف الإنسان بعد التأكيد على قوته:

(١) سورة التين: ٤.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١) والنفس إنما توسوس لتصرف عن الخير والنهوض بالمسؤولية، وما يدفع بمستوى الإنسان إلى الأمام على طريق الهدى والنور والصّلاح والفلاح، ولتوقع في الشر والسوء والخسران. وليس أقرب للمرء بعد الله من نفسه فإذا كانت النفس أمارة بالسوء، موسوسة لصاحبها فهذا منبع ضعف للإنسان يقعد به إلى الأرض، يمنعه من النهوض، يأخذ بنظره عن الالتفات إلى صالحه. والمخبر بهذا من هو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٢) الإنسان بشهوته، بجانبه الذي يشده إلى الأرض من دوافع ورغائب ومطامع وتطلعات مادية ضعيف أصلاً على قوته، وبقطع النظر عن عطاءات تربيته، وآثار منهجه. وهو ضعف يقابله التخفيف في التكليف، ومراعاة التعثرات على الطريق. فالتكليف للإنسان جاء ملتفتاً إلى ضعفه، غير مثقل عليه محرج له، مسبب له الفشل في تحمله. كما أنه لم يهمل حاجات تربيته، وما به تقويم عوجه فيسبب له التسيب، وزيادة الضعف والاهتراء على ضعفه.

(١) سورة ق: ١٦.

(٢) سورة النساء: ٢٨.



والآية الكريمة الأخرى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١) مع ما في الإنسان من ضعف خلقه لشهواته، وضغط ما كان مادياً من دوافعه وغرائزه يأتي عليه ضعف زائد بإهمال نفسه، وتسيبه، وعدم أخذه بالجد في تربيته، وهو ضعف متنامٍ مع الأيام ما دام لا يجاهد النفس، ولا يقاوم الضعف، ولا يبني جانب الإرادة الصالحة في ذاته.

وقد يقوى بإيمان، وجهاد، وعملٍ صالح، ومقاومةٍ لروح الانحطاط والتسيب، ثم يتراخى ويلين ويقل استمساكه بالمنهج القويم فيطراً عليه ضعفٌ بعد القوة، ووهنٌ بعد الشدة، ويفقد من درجة تحمُّله، وقدرته على النهوض بأعباء المسؤولية، وثقل التكليف ما يفقد. فلقد كان المؤمنون في أوج إيمانهم، وسمو روحيتهم، وصلابة استمساكهم بمنهج الله الحق، وما يعطيهم ذلك من صبر وصمود وثقة كبيرة وإصرار صاعد، العشرون منهم يغلبون مائتين، والمئة يغلبون ألفاً من الكافرين، فالواحد من أهل الإيمان في درجة عالية منه يفوق قوة صلابته، وصمود، وشجاعة نفسية، وإقدام، وروح تضحية وفداء

(١) سورة الأنفال: ٦٦.

عشرة ممن كفروا، وهو في درجة أخرى دون تلك لا يفوق إلا اثنين حتى يغلبهم.

فالإنسان يفقد من قدرته على مواجهة التحديات على مستوى نفسه وعزيمته، ومقاومته الداخلية، ويصيب الضعف إرادته وصموده بقدر ما ينفصل عن خط الإيمان، أو يفتر في جهاده الشعوري والعملية على هذا الخط.

والإنسان قبل التربية الصالحة أو الطالحة فيه - كما تقدم - ما يهزمه من شهواته ودوافعه المادية، وميوله وغرائزه الأرضية. والتربية السيئة، والحضارة المادية المنحطة تزيد ضعفه ضعفاً، وتسبب له التميع والاهتراء في حين أن التربية القوية وحضارة الإيمان النابه تُخرجه من الضعف إلى القوة، ومن الظلمات إلى النور، وتحميه من الانهيار أمام تحدي المثيرات المادية، وضغط الدوافع والغرائز الطينية، وهي الأمر الذي يقف الانهيار أمامه وراء سقوط الإنسان وتقهقره.



والآن دور هذا السؤال: حضارة الإنسان وحضارة الطين أيهما للقوة وأيهما للضعف؟ ثم أي قوة وأي ضعف؟

- ١- قوة الإنسان وضعفه.
- ٢- قوة الأوضاع المادية من صنعه وضعفها.
- ٣- قوة العلاقات البينية في إطاره وعدمها.

الإنسان بين القوة والضعف:

(١)

الإنسان ذاتاً.... وخلقته:

أ. الإنسان ذاتاً:

الإنسان ذاتاً ضعيفٌ بل عَدَمٌ :

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً
مَّذْكُوراً﴾^(٢) ما كان الإنسان شيئاً على الإطلاق، ثم وقد كان شيئاً
إلا أنه الشيء غيرُ المذكور، الشيء الضائع في هذا الكون العريض؛
الذي لا تقع عليه عين، ولا يُرَّ له ذكرٌ، وليس له تبينٌ. أين كانت
الملايين والبلايين من بني الإنسان قبل أن يُخلق الإنسان الأول؟
وأين كنتُ أنا، وأين كنتَ أنتَ قبلَ كذا من السنين؟

(١) من خطبة الجمعة (١٧٥) ٦ شوال ١٤٢٥هـ - ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٤م

(٢) سورة الإنسان: ١.



ب. الإنسان خلقة:

١. على المستوى العام:

والإنسان خلقة، وعلى المستوى العام منه ضعيف، واه:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾^(١) هذا الإنسان تقلبه يدُ القدر، وتنقله من حالٍ إلى حالٍ من دون أن يملك اعتراضاً، ومن دون أن يكون له شأنٌ في تقرير مصيره من ناحية الضعف والقوة المفروضة عليه تكويناً. نعم، هناك مساحة من الاختيار يدخل فيها فعل الإنسان في صنع قوته وضعفه وهي بتقديرٍ من الله ومملوكةٌ له.

ألم يكن الإنسان من نطفة؟ ألم يكن الإنسان في خلقته الأولى واهناً كلَّ الوهن، وحتى بعد تقدّم تجده قابلاً في رحم أمه، مستسلماً خاضعاً خانعاً لا يملك حراكاً، وهيئته تنطق بالذُّلِّ والمسكنة والاستسلام الكامل ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٢)

(١) سورة الروم: ٥٤.

(٢) سورة النساء: ٢٨.

٢. على المستوى النفسي:

والإنسان على المستوى النفسي ضعيف وهو ما يهمننا في هذا المورد

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ ﴿١﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۖ ﴿٢﴾. الإنسان قلق، مضطرب، مهزوز، وكيف لا يكون كذلك وهو الفقير في ذاته، وهو الذي يملك عليه كل وجوده وحياته.

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ﴾ يخاف من الفقر، يفرع، يجزع، يفقد صبره، يزداد اضطرابه، لا تهدأ له نفس، وقد مسه الفقر، مسه المرض، قرب أجله، حلت به الكوارث والنوائب.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۖ﴾ لأنه لا يملك ولا يضمن من نفسه خيراً جديداً فوق ما عنده من خير لو أعطاه. هذا هو الإنسان محكوم لمشاعر، لدوافع، لضرورات، لحاجات، لهواجس، لخواطر، لتحسبات، والإنسان من غير ذلك لا يبقى، ولا بد أن يكون كذلك حتى يعيش، وإلا فكيف يحافظ على نفسه إن لم تكن له هذه الدوافع، ولم يكن عنده هذا الخوف وهذا التحسب؟!

(١) سورة المعارج: ١٩-٢١.



٣. تحديات ومتاعب:

والإنسان حياته محفوفة بالمتاعب، بالتحديات، بالمشكلات والأزمات:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(١) والكبد: هو الكد والتعب. لا يستطيع هذا الإنسان بملايينه أن يستبدل مناخات التعب والرهق والنصب والمشكلات والعلاقات الشائكة، وملامات المرض، والفقر، وكوارث الطبيعة، أن يستبدل هذه المناخات إلى مناخات هائلة، مناخات رغيدة، إلى حياة حريرية.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^(٢) اللقاء مع الله أمر محتوم، والإنسان في هذه الحياة كادح، ولا يمكنه إلا أن يكون كادحاً، وقد يكدح لنفسه، وقد يكدح عليها، وهو ملاق ربه بما كدح؛ كدحٌ يلاقي رضوان الله، أو كدحٌ يستوجب غضبه، كدح ينتهي بصاحبه إلى الجنة، أو كدح يوقع صاحبه في قعر النار.

ولن يجد أحد خيراً، ولا تقدماً، ولا رفعة ولا رقيّاً إلا عن طريق الكدح على الطريق الذي أوصى به الله ﷻ. فالحياة حياة كدح،

(١) سورة البلد: ٤.

(٢) سورة الإنشقاق: ٦.

وحياة تعب ومشاكل، والإنسان في داخله جزعٌ، هلعٌ، خوفٌ، قلقٌ من مشكلات المستقبل، وحزنٌ من مشكلات الحاضر. والإنسان حريصٌ على حياته، يتمسك بكل الأسباب ما استطاع من أجل الحفاظ على الحياة، ولكنه لا يملك أمل الحياة على الإطلاق.

كيف يحمي الإنسان نفسه من الهزيمة؟

هذا الخوف والحزن والقلق والهلع والجزع يسحق ذات الإنسان، يملك عليه خياراته، يفقده القدرة على القرار الصائب. يكون الإنسان تحت طائلته مملوكاً للعواطف، للانفعالات، للمشاعر السلبية بحيث يفقد توازنه، ويفقد قدرة القرار العاقل.

ويريد الإنسان أن يسعد، ولا سعادة مع الضعف، فالضعف يعني الهزيمة، والمهزوم في تصرف الغير، ولا يملك أن يختار طريق سعادته. فلا بد أن نقوى لنسعد.

ولعلك تعول على قوة الخارج؛ إلا أن قوة الخارج مع ضعف الذات لا تكفي لحل المشكل؛ فالنفس الضعيفة تبقى مهزوزة مغلوبة مصروعة برغم ما تملك من قوة خارجها. وسلطان الشعور المرّ الثقيل بما عليه النفس من ضعف لا يحمي منه ولا تخففه قوة ما بيدها من



شيء. فالغنيُّ مالاَّ المغلوب في نفسه لطمعه وجشعه شقيٌّ لا سعيد، والمفتولُ عضلاً المهزومُ لخوفه بئس لا محظوظ، والذي يشعر بالصغار والدونية لا تعوضه عن مصيبتة أسباب الظهور والعزة حوله.

ويمكن لنا أن نحكي أنفسنا من هزيمة الداخل، وأن ننتصر في ذواتنا على التحديات بأن نبني النفس بناءً قوياً لتتحمل، ويخف عليها ثقل الأحداث، وضغطُ المشاعر السلبية، أو تتخلص نهائياً من المعاناة التي تأتيها مما تفقد وما تجد^(١)، وحال الخير والشر، والضيق والسعة.

وللإسلام منهج في البناء والقوة منقذٌ للإنسان، ولن يجد الإنسان منهجاً آخر يمكن له أن يبني الذات الإنسانية قويةً فولاذيةً صلبة تستعلي على مشاعر الوهن والضعف والضععة، وتتمشى دائماً في قراراتها مع العقل، والفطرة، والمصلحة النهائية العليا للإنسان نفسه.

(١) فإن المعاناة قد يكون مصدرها فقدان، وقد يكون مصدرها الوجدان، وكما أن الفقر قد يحكم الذات ويقهرها فكذلك الغنى قد يحكم الذات ويقهرها، وكما أن الفقر يمكن أن يشقي، فكذلك الغنى يمكن أن يشقي. (منه حفظه الله).

(١)

الإنسان قويٌّ في حضارة الإنسان؛ حضارة الإيمان
والإسلام أم في حضارة الطين؟

والحضارة الأولى حضارة عقل وقلب ووعي وهدى وروح وصلاح
واستقامة وزكاة. والحضارة الثانية حضارة دوافع من دوافع المادة،
وغرائز ملتصقة بالطين، وشهوات حيوانية، وهموم أرضية، وتطلعات
منقطعة، وآمال قريبة، ورؤى محدودة، وأمنيات حشرية، وطباع
غابية قد تُسخر لها القوة العاتية والعتاد الفتاك، وأسباباً كثيرة من
أسباب البطش التي يشارك في تحضيرها الفكر، وتتفنن في إبداعها
العبقريات، وتسوق إلى توفيرها إرادة الاستئثار الكاسح.

(١) عود إلى خطبة الجمعة (١٦٧) ٩ شعبان ١٤٢٥هـ - ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٤م.



الحضارتان وصناعة الإنسان:

[الإنسان من صناعة حضارة الإنسان في ضعفه وقوته]

الإسلام حضارة الإنسان. يصنعه قوياً صابراً صامداً مقاوماً متحملاً
يختار السمو على الانحطاط، وأن تصعد روحه لا أن تهبط، ويكبر
اهتمامه لا يصغر، ويسمق هدفه لا يلصق، ويقاوم لا يتراجع.

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة في هذا الموضوع:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا...﴾^(١)

وفي آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢)

(١) سورة البقرة: ٩٣.

(٢) سورة البقرة: ٦٣.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾^(١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ...﴾^(٢)

﴿... وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣) «الَّذِينَ
إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ»^(٤)

﴿وَكَايْنٌ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٥)

الآيات المتقدمة طائفتان؛ الأولى تدفع المؤمنين إلى موقف القوة
والشخصية المقاومة المتحملة القادرة، والدور المجاهد الصامد، وموقع
الإنسان المثل القدوة الناهض بأعباء الرسالة الإلهية، المسجد لقيمها
وتعاليمها وأهدافها. فهي على طريق صناعة الإنسان القوي
والشخصية القادرة، وكفاءة ذات الإنسان العالية. هذه الآيات تدفع

(١) سورة المائدة: ٨.

(٢) سورة النساء: ١٣٥.

(٣) سورة الحج: ٤٠-٤١.

(٤) سورة آل عمران: ١٤٦.



وتَحْضُر وتطالب الإنسان بأن يكون الإنسان القويَّ القادر الصامد المتحمل.

والطائفة الثانية المتمثلة في الآيتين الأخيرتين تتحدث عن إنسان من إنتاج خط الإيمان وحضارة القرآن، فهذا الإنسان مُستَعْلٍ على ظروفه، ثابتٌ عند مبدئياته، محتفظٌ بخطه وأخلاقه وتوازنه، غير منهَارٍ أمام شدةٍ ولا رخاء، ولا نصرٍ ماديٍّ ولا هزيمة، قويٌّ في كلِّ الأحوال و التقلبات، تتحدث عن إنسان نصر الحق فنصره الله، وعن ربِّين توجههم إلى الله، وصياغتهم من وحي دينه.

هذا الإنسان لا يغيره النصر، ولا يهِنُ عند الشدة والخسارة المادية الفادحة ولا يلين ولا يستكين. يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويأمر بالمعروف وهو في قمة النصر الساحق كما هو في الحال الآخر، ويثبت في المعركة في موقعه من جبهة الحق لا تزلزله الأحداث والأهوال والشدائد، ولا يدخله وهن منها.

(١)

(١) من خطبة الجمعة (١٧٥) ٦ شوال ١٤٢٥هـ - ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٤م

الإسلام وصناعة القوة (قوة الداخل):

إنَّ للإسلام منهجاً يصنع القوة في الخارج، وإنَّ للإسلام منهجاً يصنع القوة في داخل النفس. والكلام هنا عن قوة الداخل.

١. رؤية للقوة:

الإسلام يقدم رؤيةً من أجل القوة بحيث تكون أساساً لقوة هذا الإنسان تحميه، وترفع من مستوى مناعته أمام المصائب والكوارث، يقول سبحانه في كتابه العزيز :

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلُ أَنْ نَبَرَّاهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ «لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ»^(١)

القضية المطلوبة هو أن لا يملكننا حزنٌ ولا فرح، غضبٌ ولا رضا، فقرٌ ولا غنى، القضية المركزية الكبرى التي من أجلها بناء الذات هو أن هذه الذات الإنسانية بمضمونها الكبير لا تكون مهزومة أمام

(١) سورة الحديد: ٢٢-٢٣.



المشاعر السلبية، ولا تملك عليها الظروف وضعها النفسي. وأكبر من هذا أن نتحرر من الحزن للدنيا، وأن لا نستمند فرحنا منها.

ومن أجل هذا المستوى عند النفس يقدم القرآن هذه الرؤية، ويقول أن هذه الرؤية الحقيقية من أجل أن تتوفروا على استمساك ومنعة أمام المشاعر السلبية والأحداث والظروف، ولا تصنع لكم خسارة أو ربح دنيوي شعوراً أو مبطراً.

اعلموا أن مصائبكم مكتوبة قبل أن تبرا النفوس، أو المصائب نفسها. والمكتوب المقدر المعلوم الذي لا فرار منه وخاصة إذا كان مقدره الحكيم العليم الخبير الرحيم الرؤوف الرب المدبر إذا وقع كان فإنه أهون على النفس مما لو كان لها قصي منه، وحيلة في دفعه.

٢. دروس للقوة:

هناك دروس للقوة؛ دروس وأحداث تكوينية يصنعها الله ﷻ من أجل تصحيح الوضع النفسي للإنسان، ومدّه بسبب من القوة،

﴿... فَأَتَابَكُمْ غُمًّا بَغْمٌ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١). كان غمٌ، وغمٌ سلبي هدام،

(١) سورة آل عمران: ١٥٣.

أحلَّ الله عز وجل مكانه غمًّا ولكنه من النوع البناء ليخلص نفوس المؤمنين وقد أصابتهم الهزيمة بفرارهم من المعركة من ذلك الغمِّ السلبي الذي يبعدهم عن الله ﷻ، ويثلم من إيمانهم، فهذه مصيبة ولكنها مصيبة منقذة تعطي الاستعلاء على شعور سلبي ليس فيه جنة من جنات البناء.

٣. تشريعات للقوة:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) معية الله فيها كلُّ القوة، "إذا كان الله معي فمن يستطيع أن يكون ضدي" ^(٢).

ومع هداية السبل وهي سبل القوة، وسبل الرفعة والرقى والسمو تكون معية الله ﷻ. ومن كان في حمى الله، ووفق لمعية من الله فلا يخاف عليه. وما هو الطريق؟ الطريق المجاهدة.

(١) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٢) كلمة لعالم أوروبي .



ألم يكن الإنسان هنا ليكدح ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^(١) ألم يُخلق الإنسان في كبد؟ لا ينال الإنسان دنياً، ولا ينال الإنسان آخرة إلا بكفاح، إلا بدور فعّال، إلا بمجاهدة. أنت لا تحبو إلا عبر المكابدة، ولا تقوم إلا عبر المكابدة، ولا تتعلم الحروف إلا عبر المكابدة، وكل ما تكسبه هنا عن طريق المكابدة والمجاهدة، ولن تبني ذاتك كما أراد الله لك إلا من خلال دور تصبر عليه وتجاهد على طريقه.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(٢) أتريد نفساً كبيرة، نفساً غير مهزومة، نفساً صابرة، امنع نفسك بمقدار ما تستطيع عن التعلّق والتهاك على الدنيا، على مشتهياتها، على رغائبها، على زخرفها وزينتها. وكلما امتد بك النظر إلى زينة الدنيا، وإلى شهرة الدنيا، وإلى ما في يد الغير من أشياء الدنيا كلما ضعفت نفسك، وكلما ما ملكت عليك أقطار فكرك، وملكت عليك إرادتك.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ

(١) سورة الانشقاق: ٦.

(٢) سورة طه: ١٣١.

تَرْضَى ﴿^(١) الطريق إلى أن ترضى النفس، إلى أن تطمئن، تتخلص من هلعها، من قلقها، من فزعها، من ضعفها... الطريق إلى الثقة أن ترى من تثق به، أن تنشد إلى من تثق به، أن تتعلق بمن تثق به، ولن ترى النفس موثوقاً به كالله.

فإن رأت النفس ربها وانشدت إليه تغنى، وإن لم تر الله تبقى محكومةً للشعور بالفقر وبالذونية وبالفزع والهلع والجزع والقلق.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ ﴿^(٢) إذا أردتم أن تبثوا أنفسكم، أن تبثوا إرادة قوية، أن تبثوا نفساً أبية، أن يملك فيكم عقلكم ودينكم قراراً حاضركم ومستقبلكم ومصيركم، إذا أردتم أن تكونوا أقوياء أمام المشاعر السلبية، وأمام الحوادث والكوارث، وأمام كل التحديات فاستعينوا بالصبر والصلاة. نعم اصنعوا أنفسكم على طريق الصبر والصلاة تنصنع قوية.

(١) سورة طه: ١٣٠.

(٢) سورة البقرة: ٤٥.



(١)

[كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام]:

في سياق الحديث عن (الإنسان في قوته وضعفه) نقرأ عن أمير المؤمنين عليه السلام :

«المؤمن وقورٌ عند الهزاهز (الهزائن)، ثبوتٌ عند المكاره، صبورٌ عند البلاء، شكورٌ عند الرخاء، قانعٌ بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء، ولا يتحامل على الأصدقاء. الناسُ منه في راحة، ونفسهُ منه في تعب».

(٢)

(١) خطبة الجمعة (١٧٧) ٢٠ شوال ١٤٢٥هـ - ٣ ديسمبر ٢٠٠٤م

(٢) [ما وجدناه أن الرواية عن رسول الله ﷺ في وصية له للأمير عليه السلام، كما أنها رويت عن الإمام الصادق عليه السلام كما في الكافي (ط - دار الحديث) ؛ ج ٣ ؛ ص ٥٨٣ وهذا نصها فيه : عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: «يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ثَمَانُ خِصَالٍ: وَقُورٌ عِنْدَ الْهَزَاهِزِ، صَبُورٌ عِنْدَ الْبَلَاءِ، شَكُورٌ عِنْدَ الرِّخَاءِ، قَانِعٌ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ، لَا يَظْلِمُ الْأَعْدَاءَ، وَلَا يَتَحَامَلُ لِلْأَصْدِقَاءِ، بَدَنُهُ مِنْهُ فِي تَعَبٍ وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ»].

ولنقف عند هذا الكلام الرفيع بعض وقت:

١. كلمات شارحة:

وقور عند الهزاهر:

عندما تتعاضم الأحداث ويطغى موجهها، تهزُّ كباراً من الرجال، وتنساقطُ عقولٌ، وترتجفُ قلوب، وتذوب أفئدة، وتراجع إرادات، وتتغير مسارات، ويتعزى ضعفٌ، وينكشف الغطاء عن هُزال شخصيات كانت تبدو متينة، ويتحول رجالٌ إلى أطفال. في تلك الأحداث يهتزُّ الفكر، تهتزُّ الكلمة، يهتزُّ الموقف؛ ذلك لشدة الهول، وأليم الصدمة، وكبير الضَّغط، إلا أن من كان مؤمناً حقاً، فإنه يبقى محتفظاً بوقاره واتزانه بلا اهتزاز، ولا قلق، ولا إرباك، ولا اضطراب في رؤية ولا شعور.

ثبوتٌ عند المكاره:

يصعب الموقف، ويتهدد بالفناء، فيتقهقر المتقهقرون، ويولي الناسُ الدُّبر، ويبقى المؤمن ثابتاً بشدة ورسوخ في الموقع المتقدم، لا يهرب به فزع، ولا يولي به رعب. يبقى مواجهاً مقاوماً مرابطاً ما اقتضى



العقلُ والدينُ بلا نفاذٍ للصبر وروح التضحية، وفي فداءٍ لا يلين، وعزيمة لا تستكين.

صَبُورٌ عند البلاء:

البلاء إذا ثقل وطال يقضي على الصبر، ويسلب النفس تماسكها، ومن قَدَّ صبره قَدَّ كلَّ راحته، ودينه وموقعه واتزانِه وانضباطه ووزنه. والمؤمن يزداد على البلاء صبراً، وعلى طول المعاناة تجلُّداً. وربما زاده كلُّ يوم من البلاء قوَّةً، وإلى مناعة نفسه المؤمنة من الانهيار مناعة.

شَكُورٌ عند الرِّخاء:

وفتنة الرِّخاء والسراء قد لا يصمد فيها قادرون على الصمود في فتنة البلاء كما مرَّ في الحديث عن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله؛ فكم قد غرَّت النِّعمةُ وأبطرت وأسقطت وأهلكت، وحوَّلت رجالاً أطفالاً، وأتقياء فجَّاراً. وصاحب الإيمان الحق لا تستخف منه النِّعم عقلاً، ولا تفسد شعوراً، ولا تُنسيه حقاً، ولا توقعه في باطل، فهو يقابل ما أنعم به عليه ربُّه الكريم بما استطاع من الشكر الجزيل قولاً وعملاً، سرّاً وجهراً؛ لأن النِّعمة لم تغيِّر عليه من عقلٍ ولا دينٍ إن لم تزدد في دينه وعقله.

قانع بما رزقه الله:

له غنى في نفسه من ربه لا يستقل معه ما في يده، ويستعلي به عن أن يمدَّ بصره إلى ما في يد غيره، ويحميه من التبرُّم والتضجرُّ والابتئاس وإن قلَّ ما في الجيب، وما هو من خير العاجلة إيمانه بربه، ويقينه بكرمه وحكمته ولطفه ورحمته.

لا يظلم الأعداء:

يحكم انفعالاته، ولا تحكمه انفعالاته، إذا انفعل لا يغلب انفعاله عقله، ولا يغيب في موقع الشعور والنطق والفعل دينه، ولا يميل به عن الحق، ولا يفسد عليه رؤيته. فالعداوة بينه وبين غيره، ولا تكون لباطل من جانبه لا تركبه ظلماً، ولا تُحدث منه جوراً، فلا يلحق عدوه منه عدوان، وتجاوز لحق يقدر عليه.

ولا يتحامل على الأصدقاء:

نفسٌ يحكمها تسامح الدين، وخلقُ القوة، وطهرُ السريرة، فتغضي عن السيئة، وتصفح عن الخطيئة، وتذكرُ حقَّ الأخوة، ولا تسرع إلى القطيعة. إنها النفس المترفعة التي لا تقف عند سقطات الإخوان، وزلات الأصدقاء، وتلتمس لذلك عذراً من ضعف الإنسان وغلبة الغفلة عليه.



الناس منه في راحة، ونفسه منه في تعب:

لا يسمح للشر أن يقوم في نفسه ؛ ليجري منه الشيء السيئ على يده، وله من خير النفس وفعل الخير ما يسرُّ به غيره، وتصل نفحاته العبقة إليه. أما نفسه فهي منه في تعب لا ضرر، وفرق بين ما هو تعب وما هو ضرر، وفي جهد لا ظلم ولا إساءة. إنه ليس ممن يظلمون أنفسهم، إذ تعب نفسه منه لبنائها وطهرها وكمالها، فمن تعبها هذا تقوى وترقى، وتسمق وتعظم وتتقدم.

الإمام عليه السلام في هذه الكلمات المشرقة يرسم صورة عن نفسه الكريمة، وشخصيته الإيمانية القوية، ولسانه عليه السلام يغترف من قلب يزخر بالخير، وروح تشرق بالكمال، من شخصية فولاذية قوية ليس لها إلا طريق واحد، وهو الطريق الصاعد إلى الله تعالى، إنه يرسم للناس الشخصية الإنسانية المتكاملة التي يجدها متجسدة فيه صلوات الله وسلامه عليه.

٢. هذه هي الشخصية القويّة:

فالقويّ من ملك نفسه بعقله ودينه لا من ملك غيره بظلمه وقهره، كون المرء يملك الكثير من الأشياء، ويسيطر على الكثير من

الناس، لا يعني أنه القوي. القوي أن يملك أحدنا نفسه، أن يكون عقله ودينه سيد قراره.

المجنون يمكن أن يُسَكِتَ العاقل، وطفلٌ بيده سلاحٌ ناريٌّ يمكن أن يفرضَ موقفاً خارجياً على عدد من الناس لا يساوي منهم شيئاً عقلاً وحكمةً وقوةً. فلا تعني قوة الخارج أن الشخصية قوية، قوة الخارج قد تكون بيد شخصية مهزوزة قلقه مرتجفة عابثة مهزومة في داخلها.

الشخصية القوية هي شخصية يفرضُ كمالها احترامها، لا ظلمها وبطشها، تسلطها وهيبتها. الظالم والطاغي والمفسد مهزومٌ من داخله، ضعيفٌ أمام نفسه، والآخرون يخافون منه هذا الضعف. الآخرون يخافون من الطغاة ضعف أنفسهم، حيث إن الطاغية لا يملك نفسه، لا يملك شهوته، لا يملك السيطرة على الشرِّ في داخله، فإنما يخاف الطاغية؛ لأنه لا يملك هواه، وهواه يملكه.

الشخصية القوية هي الشخصية التي لا تملك الأحداث أن تُذلَّها أو تُبَطِّرها، ولا سبيل إليها لإذابتها، ولا يملك الآخرون أن يأسروها في



داخلها، ويقزموها في شعورها بذاتها،^(١) ويسلبوا منها إحساسها بكرامتها، ويفقدوها إيمانها بهدفها ورسالتها على أن تكون غير واهمة ولا مخدوعة، واقعة في أسر الخيال والخرافة.

٣. كيف يصنع الإيمان القوة؟

الإيمان - فكراً وشعوراً وعملاً - يقود إلى الله، يشد النفس إليه، يصنعها قوة كبيرة عظيمة في ضوء أسمائه الحسنی. فالمؤمن متعلق بأسماء الله الحسنی، منشد إلى جمال الله، إلى كمال الله، عاشق له.

الإيمان وهو يقود فكر المؤمن، وشعوره وعمله يلهمه رؤية الله، يغذيه بالشعور بعنايته ورحمته ومدده ولطفه ودعمه ونصره، والله أقوى قوي، وأغنى غني، وأعظم عظيم، وأرحم رحيم، فلا يبقى بعد هذا كله ما يجعل نفس المؤمن تنهزم في داخلها، أو تحتقر ذاتها، أو تضعف أمام الأحداث والأشخاص والجهات وتنهار.

(١) قد تقيد من الأبي رجلاه، وتغل يداه، إلا أنه يبقى الأبي في داخله، الكبير في شخصيته، الواصل بنفسه، المطمئن إلى خطه فتجد فيه الشخصية القوية، وتجد في جلاده الشخصية الضعيفة المهزوزة. (منه حفظه الله).

٤. التحصين الخارجي والتحصين الداخلي:

نحن ضعاف شئنا أم أبينا، ولابد لنا من تحصين، ولا نقوى إلا بالتحصين، والتحصين منه ما هو خارجي، ومنه ما هو داخلي، فأى التحصينين أقوى؟، وأيهما أحمى؟

الغذاء، المال، السلاح، الجاه، وقوة الجند والعشيرة مثلاً تحصينات خارجية، وهي عاجزة عن التأمين الكامل للإنسان وسد كل أبواب المتاعب والشور.

إننا لا نستطيع أن نملك الطبيعة، والتصرف فيها بالكامل، وإننا لا نستطيع أن نملك تصرف كل الآخرين لتكون تلك التصرفات على ما نهواه. لابد أن تصلنا الكلمة المؤلمة، أن توجه إلينا سهام أعداء، يأتيها في يوم من الأيام خذلان من أصدقاء.

إنك لا تستطيع أن تقف في وجه كل الرياح بمالك وسلاحك وجاهك وعشيرتك، ولكنك تستطيع أن تتحصن في داخلك من ذلك، بأن توثق العلاقة بالله، تُصحّ صلتك عبداً به رباً، تعمل لرضاه فتقوى به، بيقينك بمعيتة لك، وقوفه معك، دفاعه عنك، بدعمه، بمدده، بحمايته ووقايته وحفظه، وحين تكون في داخلك شاعراً بالقوة،

شاعرا بصحة الموقف، شاعرا بالدعم الإلهي فلن يغلبك شيء، ولن يهزمك شيء.

(ويبقى الكلام عن الإنسان من صناعة حضارة الطين في ضعفه وقوته).^(١)

(١) العبارة من خطبة الجمعة (١٦٧) ٩ شعبان ١٤٢٥هـ - ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٤م.

(١)

[الإنسان من صناعة حضارة الطين في ضعفه وقوته]

الإنسان القوي الذي لا تأسر روحه الأحداث، ولا تستعبده الدنيا، ويملك القوة التي يصنعها ولا تملكه، ويبقى له توازنه واتزانته في كل الظروف هو صناعة حضارة الإيمان والقرآن كما تقدم. أما إنسان حضارة الطين المصنوع على يدها فهو إنسان ضعيف مهزوز في إنسانيته، يمكن أن يصنع القوة في الخارج لتثير فيه الغرور والطيش والجنون، وأن يتقدم على يده البناء المادي ليطيح بإرادته وإنسانيته، ويسترق وجوده، ويقزم معناه.

(١) خطبة الجمعة (١٦٨) ١٦ شعبان ١٤٢٥هـ - ١ أكتوبر ٢٠٠٤م



[خسائر إنسان الحضارة المادية:]

وإليك طائفة من الآيات التي تُقدِّم صورة عن إنسان الحضارة المادية فيما يخسره من إنسانيته، ويفقده من معناه، ويعتريه من نقص في قيمته بالقياس إلى ما عليه واقع تكوينه وفطرته. تقول الآية الكريمة:

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَآكَثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١). المخاطبون للآية الكريمة فيما يظهر الكفار ومنافقو ومنافقات هذه الأمة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢). وما خاض فيه هؤلاء هو عداوة القيم السماوية الرفيعة ومواجهتها وهؤلاء، وهم أصحاب الاتجاه المادي، يستمتعون بنصيب من المادة يكون لهم في الدنيا ولكن أعمالهم

(١) سورة التوبة: ٦٩.

(٢) سورة التوبة: ٦٧.

محبطة لا تغني يوم القيامة حيث النظر إلى الروح والمعنى لأنها تهدم صاحبها ولا تبنيه، وذاته خاسرة تفقد من خير غنت بها فطرتها، ويلمُّ بها نقصٌ شديد.

وفي معرض الحديث عن قوم عاد، وحضارتهم من حضارة الطين، وفي خطاب للكفار زمن القرآن يقول الكتاب الكريم:

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيْمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١). السمع والأبصار نوافذ الإنسان على العلم، والأفئدة مصنع المعرفة ومركز الإدراك والتقدير والتدبير والحكمة، وهي مواهب الله في الفطرة، وكلها فاقدة لقيمتها العالية ودورها الكبير في صناعة الإنسان السوي ونموه وكماله ونضجه وهداه، وإثراء إنسانيته، وتوسيع أفقها بفعل جاهلية حضارة الطين، مع التمكين المادي، وبلوغ القوة المادية ما بلغت. فالباطل يمكن أن يقيم حضارة مادية ضخمة ولكن بلا إنسانية شامخة، وإنما الإنسانية في ظل هذه الحضارة هابطة منسحقة مضيعة، وهي بقدر ما تتعملق في الخارج، وتتركز قيمها في نفس الإنسان تأكل من معناه وإنسانيته، وتهبط بمستواه

(١) سورة الأحقاف: ٢٦.



من حيث هو روحٌ كريمةٌ، ومشاعر طاهرة، وعقل حكيم، ومضمونٌ سامٌ خالد بإذن الله.

وهذه طائفة من الآيات الكريمة الأخرى في هذا الموضوع:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^(١). حضارة مادية قوية، وغنى باذخ، وثروة زراعية متقدمة لكن إنسانها مذنب ذنباً لا يستحق معه الحياة عند الله، ومجتمعها ساقط سقوطاً لا يصلح معه للبقاء. والإغراق في الذنوب، والوغل في الخطايا هو غاية الوهن، وضعف الشخصية الإنسانية وانحلالها.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾^(٢) تقدم عمراني، وفنٌ مادي راقٍ، وقوة على الأرض لكن وراءها إنسان مضيع للهدف، خاوٍ من القيم، يقوده العبث، وينفق العمر والفكر والنشاط في ما هو ضرب من ضروب التلهي الذي لا يقع خطوة على طريق الغاية الكبيرة النبيلة

(١) سورة الأنعام: ٦.

(٢) سورة الشعراء: ١٢٨.

المرجحة. ذلك أن المنطلق مادي لا يلتفت إلى الروح، وجاهلي منفصل عن الله.

﴿أَتَرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمَنِينَ﴾ «فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» «وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ» «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ» «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا» «وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ» «الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ»^(١). مجتمع أقام حضارته المادية مفصولة عن هدى الله، غير آخذ بمنهجه، ولا مستقيم على طريق تقواه، منساقاً وراء قيادة غير مؤمنة، مسرفة على نفسها، متجاوزة لحد عبوديتها، مستكبرة على بارئها ومدبرها. إنسان هذا المجتمع فقد الصلاح في نفسه، وملئ الفساد داخله، وأعطبت إنسانيته بماديته، فكان دوره الإفساد، ونشاطه للخراب، وناتجه التشويه لرسالة الحياة، وهدف الوجود.

وواضح أن إقامة حضارة مادية باذخة على الأرض فيها إسقاط الإنسان، وإطفاء نور الفطرة في داخله، وتفريغه من جماله المعنوي، وإقبار قابلياته الإنسانية الخيرة لا يعدُّ إصلاحاً، ولا يُعقبُ فلاحاً

(١) سورة الشعراء: ١٤٦-١٥٢.

ولا نجاحاً. فالمنحدر عن خطِّ الله، وهو مسرفٌ جزماً، مفسدٌ لا يصلح ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(١).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ «إِرمَ ذاتِ العمَادِ» «الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ» «وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ» «وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ» «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ» «فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ» «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ»^(٢). هؤلاء أقوام أشادوا ألواناً من حضارة المادة متفوّقة على الأرض، على منأى من قيم السماء فانطمست معالم الهدى والنور في ذواتهم، وخسروا الحكمة والبصيرة فكان أن طغوا وأكثروا في البلاد والعباد الفساد، وكانوا وراء الظلم والضلال في الأرض حتى صبَّ عليهم ربُّك سوط عذاب.

﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ «وَطُورِ سِينِينَ» «وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» «ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ» «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»^(٣). خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، ومعادلةٍ تكوينيةٍ تضعه على

(١) سورة الشعراء: ١٥٢.

(٢) سورة الفجر: ٦-١٣.

(٣) سورة التين: ١-٦.

طريق سعادته، وتُبْلِغُه غايته بشرطِ حُسْنِ إرادته فانقسم فريقين؛ فريقٌ نما وزكا وسما، وزاد نوراً ورشداً وهدى بأن انشد إلى منهج الله وأقام حياته على هداه ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وفريق انحدر عن الصراط، وراهن في حياته على الأرض، وانكبَّ على الطَّيْنِ، فكان أسفل سافلين. بلا رشدٍ ولا حكمة، ولا هدي ولا نور، ولا هدف كبير ولا نية صالحة، ولا تطلّع واسع، ولا رؤية فسيحة، ولا خلق كريم، ولا عمل صالح، ولا تقدير له صائباً، ولا تسليم فيه بالحق ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وكأنه عاد حيواناً مفرغاً من كل ما تغنى به إنسانية الإنسان القويم، بل من الناس والجن من يكون أكثر بعداً عن الإنسان في هداه وطهره وسموه من الحيوان، وهؤلاء الذين هم أكثر انحداراً من الحيوان [بـ] كثير ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١).

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (٣)﴾^(٢). عدا من

(١) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٢) سورة العصر.



استثنتهم الآية الكريمة الأخيرة يُقسم الله سبحانه أنهم في خسر. هذا الخسر يبدأ فقداً في وزن إنسانية الإنسان، ومقدار هداة، واستعدادات صلاحه، وقدرته على الاستقامة، وقبوله للحق، ورضاه بالعدل، وأخذه بالهدى، ونقص زكاة في فطرته، ونقاء في روحه.

وهذا الخسران مستتبعٌ لخسران الرضى والاطمئنان والأنس بالله في الحياة، وإمكان إقامة المجتمع السعيد في الدنيا والألطف الإلهية الممنوحة للصالحين فيها وجميل موعود الله في الآخرة لمن ارتضى. فالإنسان أول ما يخسر بإدباره عن ربه يخسر من ذاته ومن جماله وكماله ونوره وهداه، ليخسر ثانياً لذة روحه في الحياة وبعد الممات، ويعيش متاعب ضياع الروح في الدنيا وشقاء الآخرة.

وأما متعة الكافر في هذه الحياة فمتعة بدن، ولذة حيوان لا استقرار لها ولا مقام، وبعض الحيوان أغزر منه لذة في جانب البدن، وأغلط شهوة، وأكثر تمكثاً في هذا التمتع.

الفصل الخامس

الحضارتان والعلاقات

- حركة القوة الخارجية عند الحضارتين.
- الحضارتان والعلاقات الإنسانية

(١)

[الفصل الخامس:

الحضارتان والعلاقات.]

[أولاً:] الحضارتان والأوضاع الخارجية:

السؤال المطروح في هذا المجال هو: ما موقف كلٍّ من الحضارتين من تقدم وتخلّف الأوضاع الخارجية، وضعف هذه الأوضاع وقوتها؟
الوضع الاقتصادي والسياسي والعسكري والعمراني أوضاع حيوية ونشطة وناهضة أو هي على خلاف ذلك في هذه الحضارة وتلك؟
هذا هو السؤال المطروح.

(١) خطبة الجمعة (١٦٩) ٢٣ شعبان ١٤٢٥هـ - ٨ أكتوبر ٢٠٠٤م

تقدم أن الحضارة المادية يمكن أن تقيم واقعاً مادياً شامخاً على الأرض، وأن تتقدم بالزراعة والصناعة وتحقق ازدهاراً اقتصادياً، وتتوفر على وضع عسكري رادع، ووضع عمراني متفوق، وتوجد وضعاً سياسياً مستقراً إلى حين. وقد مر من الآيات الكريمة ما يتحدث عن حضارات ومجتمعات جاهلية قد تحقق لها تقدم كبير في جانب أو آخر من جوانب المادة وإبداع ملحوظ.

أما حضارة الإيمان التي تجعل إنسانية الإنسان وكماله هدفها الأول فعلياً أن نسمع عن موقفها من قوة الأوضاع الخارجية على لسان آيات من الذكر الحكيم:

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾^(١).
المخاطبون قوم عاد، والمخاطب هود عليه السلام. وعاد كانوا يتمتعون بتقدم عمراني، وتحصينات قوية، وقوة ضاربة تدفعهم في ظل جاهليتهم إلى العدوانية الشرسة والبطش الظالم المتجبر.



الآية الكريمة تقول ﴿... ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾^(١) التوبة هنا هي عودة إلى منهج الله. كان ذنبهم أنهم فارقوا منهج الله، وانفصلوا عن الوحي والرسالات السماوية في إدارة أمور حياتهم، فعليهم أن يستغفروا، وأن يتوبوا إلى الله، بأن يعودوا إلى المنهج القويم، إلى كلمة الوحي، وإلى القيم السماوية في تسيير الحياة، والمردود لهذا ليس تقهقرا للقوة، وليس تراجعاً للوضع الاقتصادي والوضع العسكري وإنما الآية الكريمة تقول ﴿... يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ...﴾ فالمنهج الإلهي سيضاعف القوة الاقتصادية والقوة العسكرية، ويعزز الموقع في كل أبعاد القوة لقوم عادٍ لو عادوا إلى منهج الله.

والفارق هو أن القوة في المنهج الجاهلي للبطش، أما القوة في المنهج الإلهي فهي للإصلاح، ولمصلحة الإنسان. الآية الكريمة الأخرى تقول:

﴿وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقاً ۖ لَنَفْتَنَهُمْ فِيهِ ۖ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا﴾^(٢)

(١) سورة هود: ٥٢.

(٢) سورة الجن: ١٦.

الغدق: الكثير، والعذاب الصّعد: هو الشّاق، أو الذي يتصعد على صاحبه فيغلبه.

وعد بازدهار اقتصادي، والماء الغدق تعبيرٌ عن ثروة زراعية متقدمة وعن نهوض اقتصادي، وهذا النهوض الاقتصادي لا يجعله القرآن هدفاً، وإنما يعدّه سبباً من أسباب صناعة الإنسان أو هدمه، ويرجع ذلك إلى أن يُحسن الإنسان التصرف في هذه النعمة أو لا يحسن التصرف، أن يستفيد من الازدهار الاقتصادي فيبني نفسه، أو أن ينساق وراء الازدهار الاقتصادي هدفاً، وأن يسبب له ذلك الغرور، ويسبب له الطيش والاشتغال بالدنيا.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ
عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا
تُظْلَمُونَ﴾^(١). الإسلام يطالب أمة الإسلام ببناء قوة ضاربة، ولكن
لا للعدوان، وأنت تفهم أن هذه القوة ليست عدوانية من قوله تعالى

(١) سورة الأنفال: ٦٠.



في الآية اللاحقة ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

إذا كانت هناك قوى مادية ضاربة عدوانية في الأرض تتهدد الإيمان، وتستضعف الإنسان، وتناهض منهج الله، وتعمل بالفساد والإفساد في الأرض، فلا بد من أن تكون لدولة الإيمان قوة ضاربة في مواجهة تلك القوة لتردعها عن عدوانها. أما حال أن يجنح الآخرون للسلم، وتنتهي عدوانية الطرف الآخر أو يرى منه الجد في الميل إلى السلم، وأنه يأخذ بروح السلم في مواقفه فإنه لا داعي للاستمرار في بناء القوة، بما يحول المسألة إلى عبث، ويشجع على الصراع وسباق التسليح، ولا بد للأمة الإسلامية حينئذ أن تأخذ بالسلم لأن الأصل في الأمة الإسلامية أنها أمة السلام والأمن والازدهار في الأرض.

يوسف عليه السلام في خطابه لملك مصر: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ شَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» «وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ»^(٢).
يوسف النبي عليه السلام يتقدم لشغل وزارة المالية - إذا صح التعبير -

(١) سورة الانفال: ٦١.

(٢) سورة يوسف: ٥٥-٥٧.

لحفظ الاقتصاد المهدد بسبب سنوات القحط التي كانت تتهدد مصر وذلك لأنه يتوفر على ما لا يتوفر عليه الآخرون من كفاءة علمية وأمانة ﴿... إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ...﴾ شديد الحفظ، شديد الأمانة، وشديد العلم، والعلم المناسب هنا هو علم الاقتصاد. العلم الذي يفيد لتسلم أمانة المال وإدارة خزانة الدولة، وحمل الحقيبة الاقتصادية هو أي علم؟ ليس علم القيم وعلم الأحكام الشرعية فحسب وإنما علم الاقتصاد كذلك.

وكان التمكين من الله سبحانه لنبيه في الأرض أجراً لوفائه بعهد ربه وإحسانه. وهذا التمكين رحمة من الله وهو قوة يسعى الدين لتوفر المؤمنين عليها ويقدم منهجاً ناجحاً لتحقيقها. وأي قوة، وأي غنى وفرص عريضة في الدنيا لا تقف بطموح المؤمن عن خير الآخرة الذي لا يعدله شيء في ميزان الله. وقيمة القوة والثراء وكل النعم في هذه الحياة لا تتم ما لم توظف من أجل الآخرة، ولا تكون كذلك ما لم يستعن بها على بناء الذات، وتقويم عوجها، ومعالجة نقصها.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾^(١) وهو ذوالقرنين. هذه قوة تجسدها السلطة السياسية الثابتة المتجذرة، تدعمها قوة المال والعلم، والإدارة الحكيمة، والعقل القادر، والجند

(١) سورة الكهف: ٨٤.



المطيع. وهي قوة يضعها الإيمان والعلم في صالح الإنسان ويصوغ منها أوضاعاً قويمه، وذاتاً راقية تجدد نفسها على طريق كمالها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١). هذا التنكير في كلمة «بركات» للتعظيم. وهذه البركات المنزلة من السماء والأرض، والإثراء الاقتصادي وغيره ليس نتيجة غيبية محضة لمنهج الإيمان والتقوى، فإن هذا المنهج معبء بقدره هائلة على إعطاء هذه النتيجة التي لا تكون إلا بإذن الله. فهناك ترابط بين المنهج الإلهي المنزل على الإنسان، وبين هذه النتائج، فلا نحتاج إلى أن نذهب إلى أن هذه النتائج تتم لمن طبق هذا المنهج بصورة غيبية، وإنما نفس المنهج قد جعل من الله عز وجل قادراً على تحقيق هذه النتائج، وإن كان لا يتم شيء في الوجود ابتداء واستمراراً إلا بإذن الله.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾
 وعدٌ مقضيٌّ من الله العليِّ القدير باستخلاف الذين آمنوا وعملوا
 الصالحات من أمة الإسلام، وبجعل وضعهم الأمني مريحاً إلى أعلى
 درجة، والموضوع لهذا الاستخلاف والأمن الأخذ بمبدأ الإيمان في
 بعده الفكري والروحي والنفسي وبعده العملي، وهو موضوع أعطي
 طاقة هذا الإنتاج المترتبة بفيض الله ولطفه.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
 وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
 الظَّالِمِ أَهْلُهَا...﴾ ﴿٢﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا
 كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً
 فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١﴾ إِلَّا
 الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً
 وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٢﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ
 اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ﴿٣﴾ حالة الاستضعاف مرفوضة، والاستسلام إليها

(١) سورة النور: ٥٥.

(٢) سورة النساء: ٧٥.

(٣) سورة النساء: ٩٧-٩٩.



مرفوض، والمستضعف يتحمل مسؤولية الخروج من أسر هذه الحالة ما استطاع، والمجتمع الصالح يتحمل مسؤولية مواجهة الاستضعاف.

والحق أننا أمام واقع كبير لتجربة الإسلام على يد رسوله الكريم ﷺ، ونصوص غفيرة من الكتاب والسنة لا يدع أحدهما شكاً في أن الحضارة الإيمانية حضارة القوة لا الضعف، والنهوض لا الركود على مستوى صناعة الإنسان، وصناعة أوضاعه الخارجية.

[حركة القوة الخارجية عند الحضارتين]

هذا سبل من الآيات الكريمة فضلاً عن الحديث الكثير يتحدث عن أمة القوة وعن دولة القوة، ويطلب أمة الإسلام بأن تكون قوية قادرة. وكل من حضارة الإيمان والإنسان، وحضارة المادة والطين تهدفان إلى تحريك قضايا القوة الخارجية على الأرض ولكن بفوارق بينهما منها بصورة مختصرة:

١. قوة مع عدل وقوة مع ظلم:

عدل اجتماعي تقيمه حضارة الإيمان يقوى ويسعد به المجتمع كله، وظلم وطبقية اجتماعية على أكثر من صعيد تنشئها حضارة الطين، وتحول القوة إلى سوط عذاب على الجميع؛ على الطبقة الغنية وعلى الطبقة الفقيرة بشرح لا يناسبه المقام. وذلك لما تثيره الروح المادية

من أثره فاحشة من جانب وحقد دفين من جانب آخر. وكما يقتل الفقر أصحابه، يقتل الترف أصحابه.

٢. قوة هادفة، وقوة هدف:

حضارة الإيمان تدفع إلى بناء القوة، ولكنها القوة الهادفة، والهدف هو بناء الإنسان الصالح، وبناء الأوضاع الإنسانية الصالحة. أما الحضارة المادية فهي تدفع إلى بناء القوة، وتشيد قوة على الأرض؛ قوة اقتصادية أو عسكرية مثلاً ولكن تبقى هذه القوة هي الهدف، وتستهلك حياة الإنسان، وتستنزف كل طاقاته، لتكبر القوة ويصغر الإنسان ويتحول إلى خواء.

٣. حضارة تؤسس لسقوطها:

حضارة المادة تثير الصراع داخل إطارها بما ينسفها نسفاً على خلاف حضارة الروح. لو فرغ الجو لحضارة المادة فإنها تقيم القوة لكن لا لتبقى، وإنما لتحدث صراعاً مريراً داخل إطارها وتلهب تصارع القوى، وحرب الطبقات حتى تسقط هذه الحضارة.

أما لو خلا الجو لحضارة الإيمان فإنها تبني قوةً لتبقى، ويبقى المجتمع مجتمع الأخوة، ومجتمع الصفاء. نحن نتكلم عن تربية مادية



للمجتمع، وبناء قوة خارجية في إطار القيم المادية، وفي جانب آخر عن بناء قوة مادية في إطار القيم الإلهية.

والحديث عن بناء الحضارة الإيمانية لقوة الأوضاع الخارجية فيه تصحيح لتفكير المؤمن وشعوره وموقفه العملي لو ذهب به تصور أو شعور شاذ إلى أن يقبل الضعف لأوضاع مجتمعه من منطلق إيمانه^(١). وفيه إبطال للدعوى الزائفة بأن الدين أفيون الشعوب، والدعوة للكاذبة الأخرى التي تقول ما لله لله بمعنى الصلاة والصوم وأمثالهما فحسب، وما لقيصر لقيصر بمعنى أن له أن يفعل في البلاد والثروة والعباد، ويقرر ما يشاء من دون تدخل للتشريع الإلهي، أو رعاية لموازن الدين. وفيه إفشال لمحاولات الالتفاف على حقوق الناس وتخدير مشاعرهم بدينٍ مكذوبٍ يسمح بالتهب والسلب، أو الخمول والسلبية وتضعف المجتمع المسلم.

(١) فهناك من يذهب بجهله إلى أن يربط بين الإيمان وبين الضعف والاستسلام للفقير أو للظلم أو لغيرهما، فهذا شعور شاذ يجب أن يُصحَّح. (منه حفظه الله).

(١)

[ثانياً: الحضارتان والعلاقات الإنسانية:]

السؤال المطروح هو: ما نوع العلاقات الإنسانية التي تترشح عن طبيعة حضارة الطين، وعن طبيعة الحضارة الأخرى؛ حضارة الإنسان، وذلك حسب اقتضائهما؟

الحضارة في تصميمها النظري، وفي أوضاعها العملية لا تمثل فاعلاً حياً مريداً يتفرد بعملية الصنع والتكوين للفرد وللمجتمع، فالصحيح أنه تبقى للإنسان إرادته، ويبقى له أن يتفاعل مع الأطروحة الحضارية أو لا يتفاعل. ولكن مقتضى هذه الحضارة في ذاتها وما يمكن أن تنتجه يختلف عن مقتضى تلك الحضارة وما يمكن أن تنتجه.

(١) خطبة الجمعة (١٧٠) ٣٠ شعبان ١٤٢٥هـ - ١٥ أكتوبر ٢٠٠٤م



ما هو إنتاج حضارة الإنسان، وما هو إنتاج حضارة الطين؟ أهو علاقات إخاء واتصال أو علاقات انفصام وخصام؟ أنتج هذه الحضارة أو تلك علاقات تعاون أو تقاطع، وأي تعاون إن كان؟ تنتج علاقات استعلاء واستكبار، أو علاقات احترام ومساواة؟

ونأتي إلى كلٍّ من الحضارتين في مقتضاها لهذا النوع أو ذاك النوع من العلاقات.

[أ-] حضارة الإنسان والإيمان:

وكلما قلنا حضارة الإنسان فنعني بها الحضارة التي تتخذ الإنسان هدفاً لها تطويراً ورقياً وصناعة سوية، وتلك هي حضارة الإيمان.

الكلام تحت حضارة الإنسان والإيمان يتمثل في أكثر من نقطة:

الأساس الفلسفي:

هل الأساس الفلسفي لهذه الحضارة يعطي هذا النوع من العلاقات أو يعطي ذلك النوع من العلاقات؟ الركائز الأساس لحضارة الإيمان عمّ تترشح؟ تترشح عن أخلاقية إنسانية تُعنى بالإخاء الإنساني، وتُعطي علاقات إنسانية إيجابية أم هو العكس؟

الأصول الأولى:

الأصول الأولى لهذه الحضارة مجسّدة في الإسلام والقرآن نأخذ عنها

١. خالق واحد:

خالقٌ واحد لكلّ شيء، وكلّ شيء ملكه، وواضح جداً أن الخالق لا يريد فساد من خلق وما خلق، وإنما يريد إصلاح من خلق وما خلق، ثمّ هو لا يأذن لغيره بأن يُفسد خلقه، بل يدفع ذلك الغير على خط إصلاح من خلق وما خلق.

فالعلاقات التخريبية، علاقات الفساد والإفساد، علاقات الظلم، علاقات الاستكبار والاستعلاء تخريبٌ لخلق الله، لا تنسجم مع هذا



الأصل فهذا الأصل يرفض هذا النوع من العلاقات، ويؤكد العلاقات من النوع الإيجابي.

٢. الأصل الإنساني:

هذا الإنسان خلق مُكرَّم، ومن أصل مشترك، هو قبضة من الطين، ونفخة من الروح تشرّفه.

هذا هو الأصل الأول للإنسان، ثم يأتي في أصله من الدرجة الثانية وأنه من ذكر وأنثى. وذلك الذكر والأنثى مرجعهما الأصل الأول قبضة الطين ونفخة الروح.

هذا الأصل وهو أصل أخوة، وأصل منبت واحد، هو بالآخر لا يقتضي إلا نوعاً من العلاقات الإيجابية التعاونية الخيرة.

٣. هدف واحد:

والأهداف قد تتسع وقد تضيق، الهدف الواحد قد يتسع وقد يضيق، يتسع بما لا يخلق صراعاً، ويضيق حتى يتقاتل أصحابه في سبيل الوصول إليه، ذلك لضيقه واختناقه. الهدف في حضارة الإيمان تقول عنه الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

وليس أوسع من هذا الهدف لأن عبادة الله ﷻ في بُعد من أبعادها تعني خدمة الآخر، وتعني الإخلاص للآخر، ورعاية مصلحة الآخر. فهو هدف لا يثير الصراع بل على العكس يدفع إلى التآلف والتعاون والحل المشترك للمشكلات.

٤. منهج أخلاقي:

منهج قيمي أخلاقي يعتمد التكليف والمسؤولية وقضية الحساب والثواب والعقاب، وهذا المنهج القيمي الأخلاقي إنما يُنتج ما هو من طبيعته، وبحكم تجانس المقدمة والنتيجة لا بد أن تكون النتائج القائمة على أصل من هذا النوع ومنهج من هذا النوع هي نتائج التعاون والتكافل، ورعاية الطرف الآخر، ورقابة الذات ومحاسبتها عند كل حالة من حالات الانحراف.

٥. ميزان تقيمي عالمي:

اعتماد ميزان عالمي في التقييم لا يضيق بضيق القومية، ولا يضيق بضيق العشائرية والفئوية وأي حالة أخرى. هو فوق هذه الحالات كلها، وأوسع منها، ويستوعب العالم كله .

ونطالعه في الآيات الكريمة الآتية:



﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) تفاضل بين الخبيث والطيب، والطريق مفتوح أمام كل شخص في العالم أن يتوفر على الطيب، وأن يتخلص من الخبيث ليسبق، وليتقدم على من سواه، فهو مقياس مفتوح على كل العالم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾^(٢) «وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ» عقل نير، نفس نيرة، قلب طاهر لا يستوي مع عقل وقلب وروح قد تلوّثت بما يجعل صاحبها عنصراً مضرّاً. هذا المقياس الذي نتحدث عنه آيات سابقة ولاحقة، ظاهر بعض الآيات الكريمة التي تقرّره أنه للآخرة، وبعض آخر يفتح به على حالي الآخرة والدنيا.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) مقياس العلم، والعلم قد هيا الله له ﷻ الإنسان نوعاً، ولم يهيئ له الإنسان على مستوى قوم خاصين أو عشيرة أو إقليم معينين.

(١) سورة المائدة: ١٠٠.

(٢) سورة فاطر: ١٩-٢٠.

(٣) سورة الزمر: ٩.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ...﴾^(١) قاعد
ومجاهد، الجهاد مقدم على القعود، والجهاد معنى يطرحه الإسلام
للإصلاح وللبناء والإعمار والتصحيح ولا يطرحه للظلم والبغي
والفساد. والجهاد على طريق الحق مفتوح بابه لكل القادرين في
العالم.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾^(٢) والمؤمن هو
من سلم بالحقيقة الواضحة. المؤمن من لم يكابر الحق، من لم يغط
الحق، من لم يدس الحق. والفاسق هو الخارج على حق يعرفه. أيضاً
مقياس مفتوح على كل العالم لا يعطي الأفضلية لقوم معينين،
لعشيرة معينة، لإقليم معين، لعنصر معين.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٣) التقوى التزام منهج الحق البناء،
منهج الحق والعدل، والصالح والإصلاح، وهو منهج الله ﷻ إذ لا

(١) سورة النساء: ٩٥.

(٢) سورة السجدة: ١٨.

(٣) سورة الحجرات: ١٣.



تقوى من غير التزام بمنهج الله. والتقوى غير مرتبط بأرض ولا قوم ولا عنصر ولا طبقة.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(١) حسنُ العمل، جودة العمل أمر متاح لكل الفئات والقوميات والأقطار. هذا المقياس الذي عبّر عنه هنا بأنه مقياس عالمي، ما مقتضاه؟ هذا المقياس يخلق صراعاً بين القوميات؟ بين عنصر وآخر؟ بين إقليم وآخر؟ أو يدفع الجميع على طريق الإصلاح، على طريق البناء، على طريق التعاون، على طريق الهداية؟ إنه مقياسٌ إيجابي يدفع كل هذا العالم على طريق واحد إلى الله ﷻ، وطريقُ الله طريقُ الصلاح وطريقُ الفلاح.

هذا الكلام على مستوى مقتضى الأصول الأولى للحضارة الإيمانية في مسألة العلاقات، وأن ما تنتجه هذه الحضارة هو أي نوع من العلاقات الإنسانية في ضوء هذه الأصول. ثم يأتي الكلام على مستوى المنهج والتربية.

(١) سورة الملك: ٢.

المنهج والتربية:

ما هو نوع العلاقات الذي يركّز عليه هذا المنهج وهذه التربية؟ على أي خط تقود الحضارة الإيمانية المسيرة البشرية وتربي إنسانها؟ على خط علاقات الانفصام، وعلاقات الخصام؟ أم على خط التعاون الإيجابي الخيّر المثمر؟

تقول نصوص هذه الحضارة على مستوى المنهج والتربية:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١) شجب للمنكر، للبغي، للفحشاء، ودفع للعدل والإحسان والإيتاء الخيّر. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ لخصوص المؤمن؟ أو أنه مبدأ عام يأخذ به الإسلام في كل علاقاته؟ كل موقع صالح للعدل، والإحسان له مواقعه، وهذا العدل مفتوح على كل إنسان، وعلى كل حالات، والإحسان مفتوح على كل مواقعه المقتضية. الأمر مؤكّد بالعدل والإحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي أرضية

(١) سورة النحل: ٩٠.

للإخاء والمحبة والاحترام والترابط على طريق الخير والفضيلة كما هو بين وواضح كلّ الوضوح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١) تقوى الدين مرتبطة بالعدل، والعدل مرتبط بتقوى الدين، فلا تقوى بغير عدل، والعدل الذي أمر به الدين لم يقيد بدائرة من الدوائر البشرية ولا بحالة من الحالات ومورد الأمر بالعدل في الآية قوم بين المؤمنين وبينهم بغضاء فالعدل ثابت اسلاماً في مورد البغضاء والعداوة فضلاً عن غيره.

وإنه الأمر الجازم الحاسم في الآية الكريمة بالقيام لله، بصيغة المبالغة - قوَّامين - ولم تقل الآية الكريمة قائمين. هذه الصيغة المبالغ فيها للقيام لله تعني قيام العلم، وقيام العدل، وقيام الحق، وقيام البناء والإعمار الصالح في الأرض كل الأرض، وفي الأزمان كل الأزمان. وهو عدل حتى مع العدو، ولا تمنع منه البغضاء.

(١) سورة المائدة: ٨.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١) وهناك تعاونان: تعاونٌ يشيع في الأرض على الإثم والعدوان، والتعاون الذي تأمر به السماء وتقرره الشريعة وتحتضنه حضارة الإيمان هو تعاون على البر والتقوى، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢) فلو تعاون على الإثم والعدوان من أمة الإسلام على أي طرف في الأرض لكان في ذلك خروج على مقتضى الآية الكريمة، وعدول عن منهج الله.

(٣)

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ...﴾^(٤) الشرك يعادي بين المؤمن وغيره ما دام ذلك الغير

(١) سورة المائدة: ٢.

(٢) سورة المائدة: ٢.

(٣) خطبة الجمعة (١٧١) ٧ شهر رمضان ١٤٢٥هـ - ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٤م

(٤) سورة التوبة: ١١.



مشركاً، والشرك أمرٌ اختياري يمكن التخلص منه وليس هو على حدّ اللون أو العرق لا خيار للإنسان فيه، ولا على حدّ القطريّة والإقليمية التي لا يمكن أن تتسع لكل الناس، ولا على حدّ اللغة التي قد يكتسبها الفرد قبل وعيه وعلى يد غيره، ولا يُمثّل فارقها الشيء المهم بالنسبة لعمق إنسانية الإنسان.

وحسب الآية الكريمة عندما يتخلى الطرف الآخر عن شركه يدخل في أخوة مقدّسة واحدة مع سائر المؤمنين، تجعل له ما لهم وعليه ما عليهم، ولا يفضلونه أو يفضلهم إلا بالتقوى، وهي أفضليّة لا تعطي امتيازات في الحقوق الدنيوية إلا في موقع يرتبط فيه الحفاظ على مصلحة المجتمع الكبير بعنصر التقوى، فيكون ذلك الموقع مشروطاً بها.

ورابطة الدين، وأخوة الإيمان دورها فاعلٌ في توحيد الناس، ورعاية الحقوق، وتصحيح العلاقات والسموّ بها، على خلاف ما تؤدّي إليه نزعات الأرض، وما تترشح عنه الرؤى والمشاعر المنشدة إلى المادة. ونقرأ في هذا المجال قوله تعالى:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ

﴿إِخْوَانًا...﴾^(١) كانت النظرة الأرضية تمزق صفوفهم وتعادي بينهم، ويعيشون من منطلقها الصراع على الأشياء الصغيرة، والقضايا الحقةرة. والإيمان هو الذي وحدهم بعد الفُرقة، وجمع شملهم بعد الشتات حتى صاروا الإخوة الذين لا يستعلي بعضهم على بعض، ويسوؤه أن يصيبه مكروه، ولا يهنته أن يغنى وهو فقير، وأن يشبع وهو جائع، وأن يأمن وهو خائف، وربما آثره على نفسه، وقدّم حاجته على حاجته.

وأخوة الإيمان التي تستشعرها القلوب، وتجذ معناها النفوس، ويعرفها وجدان الإنسان المؤمن يزيدها الجعل الشرعي رسوخاً في العقل والقلب .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ...﴾^(٢) ولا تتخذ حضارة الإيمان من تعدد الشعوب والقبائل، أو تعدد الجنس واللون وما شابه ذلك سبباً للصراع بل تُحلّ محلّه التعارف والتآلف، وتفتح باب السباق في الخيرات، والكمالات الإنسانية الرفيعة، والكرامة عند الله المرتبطة بتقواه.

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٢) سورة الحجرات: ١٠.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١) فإذا كانت غاية خلق الناس شعوباً وقبائل هي التعارف، فغاية التشريع الحق لا تختلف عنها بل تتطابق معها. وخطاب القرآن لرسول الله صلى الله عليه وآله أنه رحمة للعالمين، ولا يكون كذلك إلا بهداهم وتوحيدهم، والمساواة بينهم في العدل، ووضعهم جميعاً على طريق الصلاح والفلاح والسعادة بعيداً عن الاعتبارات العنصرية والقومية والجغرافية واللغوية وغيرها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)

اعتراضان:

الدعوى بأن حضارة الإيمان لا يترشح عنها إلا علاقات إنسانية إيجابية خيرة، وأن حضارة الطين والمادة المترشح عنها علاقات سيئة، علاقات تناحٍ وصراعٍ وتكالب على الدونيات، أمامها اعتراضان:

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٧.

[أ- حضارة الإيمان حضارة تقسيم وصراع!]

أ- حضارة الإيمان تُقسّم الناس إلى مسلم وكافر، وإلى تقيّ وفاجر، ومؤمن وفاسق... وتثير المسلم ضد الكافر. وهذا صراع تثيره هذه الحضارة.

وللإجابة على هذا الاعتراض يُذكر التالي باختصار:

١. الكفر يعني جحود الحق، وتغطية الحقيقة ومعادنتها. معنى الكافر أنه مغطّي الحقيقة، والذي يهضم الحقيقة حقّها. الشمس حقيقة ساطعة، إذا كفر الإنسان بها غطّاها بقوله ودعواه إنكاراً لوجودها. الله عز وجل أظهرُ شيء، وظهور كل شيء بظهوره ﷻ. الكافر يستتر هذه الحقيقة التي هي أكثر الحقائق سطوعاً، بل لا حقيقة من دونها إلا بها، يستترها بإعلامه المضلل، بدعواه الكاذبة، بخطئه الخبيثة، بدوره المفسد للعقول والفطر. هذا هو الكفر.

٢. وهو وضعيةٌ مصادمةٌ لخط الكون والفطرة الذي هو خط العبادة لله والخضوع لإرادته. كل شيء في الكون ناطقٌ بحمد الله، بتسبيح الله، شاهدٌ بعظمة الله، والحاجة إلى الله، وكل شيء في الكون خاضع لإرادة الله، آخذ إلى غايته على المسار الذي حدده الله ﷻ إليه، حتى



الإنسان الكافر في جانبه غير الاختياري عابدٌ لله، مسبحٌ باسمه، حامدٌ له، متعلقٌ بذيل كرمه وجوده.

فالكفر، وهو انحراف عن الله، واستدبارٌ لأمر الله ونهي. وهو قبل ذلك خروجٌ إنكارٍ لمعرفته، وضعيةٌ مصادمةٌ لخط الكون والفطرة الذي هو خط العبادة لله والخضوع لعبادته.

٣. وهو - أي الكفر - أرضيةٌ للظلم بعد أن كان يمثل خروجاً على أكبر حق على الإطلاق. ماذا يساوي حقك من حق الله حتى إذا خرج الكافر على حق الله لا يخرج على حقك؟

٤. وهو أرضيةٌ للانحدار السلوكي بعد أن كان مفتقداً لأساس القيم الذي لا يبقى منه شيء بعد الإنكار لله، والمصادمة للفطرة. بعد أن ينكر المرء الله عز وجل، ويخرج على الفطرة ويصادمها يكون قد خرج على القيم كلها، لأنه لا مصدر في الأساس للقيم إلا أن الله موجود وكامل، وبالدرجة الثانية إلا هذا الصوت المجلجل في داخل الفطرة بالقيم الخلقية من غرس يد الله المبدعة الحكيمة الرحيمة.

٥. فيه تعطيلٌ للغاية من خلق الإنسان وهو كماله وسعادته الأبدية التي لا يمكن أن تتحقق إلا على الخط الإلهي، وبالارتباط بالله، والانصياع إلى الله ﷻ.

وعلى هذا كله تكون مناهضة خط الكفر، ومدرسته السافلة من صميم الحفاظ على الصالح الإنساني كله بلا تمييز بين إنسان وآخر، ومقدمة ضرورية لخلق علاقات إنسانية شريفة. ولأنه لا يمكن أن تسلم العلاقات الإنسانية الإيجابية العادلة الكريمة على خط الكفر كانت محاربتة عين الدفاع عن هذه العلاقات ونموها وثباتها.

على أن الإيمان لا يدفع لظلم أحد حتى الكافر ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(١).

[ب- حضارة الإيمان غير قادرة على تحقيق علاقات إنسانية رائعة]

ب- الاعتراض الآخر: أننا نرى من حضارة الإيمان، وفي داخل الدين الواحد والملة الواحدة والمذهب الواحد أنها غير قادرة على تحقيق علاقات إنسانية رائعة، تلك العلاقات التي تتحدثون عنها، فالحسد والحقد والتقاطع والتدابير والظلم والاستعلاء على الآخر والكيد كله نجده في الدائرة الإيمانية الواحدة.

وما يردُّ هذا الاعتراض هو أننا لا ندعي بأن الانتماء الاسمي للدين قادر على خلق الواقع الصحيح على الأرض، وأن الدين يعمل في صناعة أوضاع الحياة والإنسان بعيداً عن إرادة الإنسان نفسه. فما

(١) سورة المائدة: ٨.



نراه هو أن الدين بعقيدته ومفاهيمه ورؤاه وأحكامه وأخلاقيته وتربيته وقيادته للحياة، يُضاف ذلك إلى استجابة الإنسان له قادرٌ على أن يعطي أكبر النتائج الإيجابية على مستوى صناعة الإنسان وأوضاعه وعلاقاته الإيجابية الراقية المتميزة.

الدين ليس فاعلاً حياً مريداً ينفذ إرادته الحديدية بقهر، ويعطي النتائج المطلوبة له على نحو الجبر، وعلى معزل من إرادة أبنائه، وإنما يعطي من هذه النتائج بقدر أخذهم به، وتحليلهم بمطالب تربيته.

(١)

ب- حضارة الطين والعلاقات الإنسانية:

(١) على مستوى الرؤية الذاتية.

(٢) على مستوى الرؤية القرآنية.

(٣) على مستوى التصريحات الغربية.

(٤) على مستوى الواقع الغربي.

[١- على مستوى الرؤية الذاتية]

أولاً: على مستوى الرؤية الذاتية للحضارة الطينية، وما يمكن أن تفرزه هذه الرؤية من علاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان. تفرز

(١) خطبة الجمعة (١٧٢) شهر رمضان ١٤٢٥هـ - ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤م



علاقات من النوع الإيجابي البناء، أم تفرز علاقات من النوع السلبي الذي يحطّم أوضاع الإنسان وإنسانيته؟ ويحول الحياة إلى شقاء؟

الحضارة المادية حضارة تنتهي في نظرتها الكونية للمادة، وتقف عندها على أنها الخالق والرازق والمدبّر والمنظّم والقائم بالأمر كله. المادة الجامدة تُرجع إليها هذه الحضارة الخلق والرزق والتدبير والتنظيم، وقيام أمر هذا العالم الضخم. نظرة الحضارة المادية كذلك، أو أن نظرتها منقطعة عند المادة، ولا تسأل عن قضية الخلق والرزق والتدبير والتنظيم والقيام بمدّ هذا العالم وإدارة شؤونه. فإما أن تفلسف هذا العالم المادي بالمادة نفسها، أو أنها تسكت عن فلسفة هذا العالم، وتصرف النظر عن طلب العلة الأولى له.

وحين يتجه النظر خطأً أو مغالطاً إلى إنكار الخالق الكامل، أو يتغافل عن قضية الإله الحق فالنتيجة أن لا قيم ولا خلق في ظل هذه النظرة، ولا مسؤولية حيث لا تكليف، ولا بعث، ولا حساب، ولا عقاب وراء هذه الدنيا، وكل القيمة منحصرة في لذتها ومتعتها. وعندئذ يكون الحكم في علاقات الأفراد والفئات والمجتمعات تابعاً لمصلحة الأننا في بعدها المادي القريب ولذتها الحاضرة. والمصلحة المادية والأننا المنشدة إليها لا تحترمان أحداً، ولا تشفقان على أحد،

ولا تراعيان عهدا، ولا تعترفان بذمة. المادة جامدة بلا إدراك ولا شعور ولا ضمير، والأنا شعور حاد وإيمان شديد بمصلحة الذات.

وإذا كانت الأنا في ظل هذا الشعور الحاد المتفوق على مصلحتها لا تؤمن إلا بالمادة، وأن لا مسرح لها إلا في هذه الحياة، فهي لا تحرص على شيء، ولا تسابق على شيء غير ما هو مصلحة مادية، ومنفعة وشهوة في هذه الحياة. وهي مستعدة أن تقاتل على ذلك، وتسرق وتنهب، وتتحايل وتخون، وتبيع كل شيء مما يعده الآخرون من المقدسات والشرف والكرامة من أجل أن تترف وتتبخخ وتقلب في ألوان المتع واللذائذ في المسافة الزمنية التي تعيشها على الأرض.

فروح الأنا ليست في عمى دائم عن مصالح الآخرين فحسب، وإنما تدفع أسيرها لتحطيم مصلحة الآخر من أجل مصلحة الذات المادية العاجلة، وتحرق كل الآخرين من أجل هذه المصلحة. الأنا منغلقة على قضاياها ومصالحها وهمومها، وأكثر من ذلك أنها تنفتح بعين العدوان، وتمتد بيد الشر لتغتال مصالح الآخرين، وتستبيح حياتهم ووجودهم لا من أجل أن تبقى فحسب، وإنما من أجل أن تترف وتستطيل على من تحتاج إلى بقاءه في استمرار مصالحها كذلك.

وروح الأنا بطبيعتها من غرس العدل الحكيم الرحيم في الذات البشرية، هذه الذات من غرسها في كيان الإنسان؟ غرسها البارئ



العدل الحكيم الخبير ﷺ. وهي حافظةٌ للنفس عند كلِّ إنسان، ودافعةٌ له لطلب خيره في الدنيا والآخرة.

وشأن هذه الروح شأن ما وهبه الله هذا الإنسان من قوى وطاقات ودوافع ونعم يبقى بها سعيداً لمدة في هذه الحياة سعادةً تطيقها طبيعة الدنيا، ويكمل بها ذاته فيها استعداداً للسعادة الحقيقية الأبدية في الآخرة.

روح الأنا نعمة من الله ولا تتحول نقمةً إلا على يد الإنسان. وكل نعم الله عند الإنسان تحولها الإرادة الإنسانية السيئة نقمة تحطم حياته، وتنتقل به إلى سوء المصير. والمنهج المادي المنحرف الفاشل هو الذي ينحرف بكل الطاقات والمواهب والدوافع والنعم عن خطها الوظيفي النافع الكريم الذي يرسمه المنهج الإلهي لتربية الإنسان وتنضيج إنسانيته وتكميل ذاته.

الله أغدق على هذا الإنسان نعمه، وضمَّ إلى ذلك منهجاً تربوياً ناجحاً، فحين يتخلى الإنسان عن المنهج الإلهي لابد أن تتحول النعم إلى أداة شقاء لا سعادة. فالتربية في المنهج الإلهي تتحرك بالإنسان من روح الأنا في ذاته لمصالحه الحقيقية في الدنيا والآخرة بما يلتقي مع مصالح الآخرين، ولا يتقاطع معها لأن أي إحسان للآخر يتكفل الله جزاءه حسب الوعي الإيماني والواقع فلا يضيع إثارة ولا إحسان

ولا تضحية من أحد لفردٍ أو مجتمع بعد هذا الضمان من الله الذي يجزي على الحسنة بأضعافها، ويعطي المحسنين في الدنيا وفي الآخرة فوق كل ثواب وكل مكافأة مما يؤمله محسن عملاً.

وما ضحى عبد بشيء من أشياء الدنيا للآخرين في سبيل الله إلا عظم أجره في الآخرة، وكان مردود عمله فوق أمل الآملين. وإن الإحسان من الإنسان في الدنيا يبني له ذاته في ظل تربية الله.

أنت تسمو وتتكامل من خلال عمل الخير على يدك، وكلما أحسنت، أحسنت لنفسك، لأنك تنشئ في داخلك حب الخير، وحب الفضيلة وتسمو من خلال هذه الممارسة.

وأما الجزاء الإلهي في الآخرة فهو مما لا أذن سمعت، ولا عين رأت. ففي ظل هذا الوعي الإيماني لا يبقى عطاءً مما تعطيه الغير من غير جزاء، والجزاء المحتوم من الله لمن أحسن عملاً يفوق كل عطاء. والأخذ بغير حق خسارة كبرى في ظل هذا الوعي لأنه سقوط للعبد في عين الله، وعاقبته وخيمة في الآخرة.

فروح الأنا في ظل الوعي الإيماني تصنع عدلاً لا ظلاً، ومحبة للخير لا للشر، واندفاعاً للإيثار لا الأثرة، وتمسكاً بالإحسان لا العدوان. أما التربية في المنهج المادي فتنشئ في النفس التقديس للمصلحة



المادية الآنية وتركّزه. وتأخذ بحب الذات وروح الأنا على خط الصراع الشرس على المصالح المادية الدنيوية بما يبيح الأثرة، والنهب، والغصب، والفتك، والخيانة، وكلّ دناءة وعدوان طلبا وحماية للحالة الترفية، والموقع الاستكباري، والبذخ المادي المجنون.

روح الأنا في ظل الإيمان تدفع كلّ إنسان إلى رعاية إنسانيته، وسمو روحه التي يرى فيها معناه الكبير، وقيمته العالية. وهذا الاتجاه يجعله مضحيّاً لا نهائياً، بينما هي في ظل النظرة المادية تدفعه إلى الاقتتال، والاستغلال، واستباحة كلّ قبيح من أجل أن يكون الأكثر حظاً في هذه الحياة إلى الحدّ الذي لا يبقى في داخله أي فاعلية لروح رحمة أو إحسان أو عدل أو إنصاف.

وبكلمة موجزة:

إن وعي الإيمان يفتح بروح الأنا على رعاية مصالح الآخرين، ونظرة الطين تنفتح بروح الأنا على نهب مصالحهم وامتصاص دمهم.

[٢- على مستوى الرؤية القرآنية]

ثانياً: على المستوى الثاني : [على مستوى الرؤية القرآنية] . ماذا تقول الرؤية القرآنية عن علاقات تنشأ في ظل الرؤية المادية؟

الكلام في الآية التي سأقرأها عن الفاسقين، والفاسقون جماعة خرجت عن تعليم الله، مالت عن خط السماء، ارتبطت بالأرض، تكلمت مشاعرها مع الأرض.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١)

ماذا يعطي الفسق؟ ماذا يعطي الكفر من نتائج عملية في ساحة الحياة؟ عهد الله موثق، مؤكد في العقول، في الفطر، في النفوس، ليس عهداً مكتوباً على ورق. عهد معجون بالفطرة، عهد مكتنز في الذات، عهد مختلط بالدم، عهد تتشرب به كل المشاعر الفطرية عند الإنسان وتحمله الدوافع المعنوية في ذاته، هذا العهد أبقى عهد بعد نقضه؟!

(١) سورة البقرة: ٥.



من نقض هذا العهد ماذا تساوي العقود المكتوبة على الورق عنده؟
لا شيء.

فإذاً هي حضارة نقض العهود، والتنكر للذمم، والخلف بالوعد،
والخروج على الشرط، وحضارة هذا أولها لا يمكن أن تقوم فيها
علاقات إنسانية صحيحة.

﴿يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾^(١) الكامل يأمر بوصل ماذا؟
بوصل ما فيه كمال الإنسان، بما هو عدل، بما هو حق، بما هو صلة
رحم، بما هو رعاية حقوق، وهذا كله مقطّع، كله مبعثر في حضارة
المادة.

حضارة المادة ترمي بالعدل جانبا، تدوس الحق، تقطع الرحم، تبتر
العلاقة الإيجابية الصحيحة بين الإنسان والإنسان. وما هو الناتج
المرتّب على ذلك بعد نقض عهد الله وقطع ما أمر الله به أن يوصل؟

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢) خاسرون في
ذواتهم، وخاسرون في الحياة الدنيا، وخاسرون في الحياة الآخرة.

(١) سورة البقرة: ٥.

(٢) سورة البقرة: ٥.

مجتمع الشقاء، ذلك المجتمع الذي تبنيه النظرة المادية، وشقاؤه هنا قبل أن يكون في الآخرة.

وتجدون أن فساد الدنيا كله من فساد الإنسان ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾^(١).

وماذا عن المنافقين والمنافقات وهم اخوة الفاسقين والفاسقات؟

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢) والمنكر ما ينكره العقل والفطرة والدين القويم، والمعروف ما يحتضنه العقل والفطرة والدين القويم، وهؤلاء يأمرُونَ بالمنكر وينهون عن المعروف، ويقبضون أيديهم. الكافر قد يدفع من ماله، ولكن إما أن يدفع من منطلق تجاري، أو يدفع من منطلق اضطراري، أو يدفع إعلاماً، أو يدفع تحت تأثير دافع آخر ليس هو الدافع المادي. فقد تدفعه بقية فطرة في داخله، أو تسرب تعليم ديني إلى نفسه من بيئته لأن يبذل شيئاً في سبيل الآخر.

(١) سورة الروم: ٤١.

(٢) سورة التوبة: ٦٧.



﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ مركز السوء، مركز الفساد، منطلق الفساد في العلاقات وتحطم العلاقات، وسوء العلاقات هو أنهم نسوا الله فنسيهم. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. وليس أنسى الله من الاتجاه المادي. أقرأ الآية الثالثة وأكتفي^(١).

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين^(٢) وفرعون كافر مادي. والحضارة المادية الكافرة فيها فرعون المتعالي كذباً وزوراً، وطرف آخر وهو طرف المستضعفين. الاستكبار والاستضعاف يلازمان الحضارة المادية بأنانيتها المقيتة. لا بد في هذه الحضارة من استكبار من فئة قليلة طاغية واستضعاف للملايين.

(١) [لاتنس عزيزنا القارئ أن الكلمات التي تقرأها هي عين عبارات الخطب التي يلقيها الشيخ ، وقد حافظنا على الألفاظ إلا ما شذ وندر واقتضاه التنسيق].

(٢) سورة القصص: ٤.

الخاتمة

نتائج

- الإنسان في قوته وضعفه.
- الحضارتان وصناعة الإنسان.
- كيف يحمي الإنسان نفسه من الهزيمة.
- الإسلام وصناعة القوة.
- خسائر إنسان الحضارة المادية.

[الخاتمة] : نتائج.

للنسيان نتائج، وللمذكر نتائج.

أ- من نتائج النسيان:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يَنْبِئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(١) الوضع الإنساني كله يُصاب بالتدهور، وتعمّ الفوضى الاجتماعية، وتتقطع العلاقات بين الإنسان والإنسان، وتسود العداوة والبغضاء حين ينسى الله، ويكون الانفصال عن المنهج الإلهي المربي.

المنهج الإلهي ضرورةٌ لأبدٍ منها لاستقامة الحياة، فكما أن معاندة أي قانونٍ من قوانين الطبيعة قد تُسبب الهلكة أو المرض العضال فكذلك معاندة أي قانونٍ من قوانين الاجتماع التي سنّها الله ﷻ، وأي حكمٍ من الأحكام الإلهية له نتائجُه الوخيمة الحاضرة والمستقبلية.

(١) سورة المائدة: ١٤.



تقول الآية الكريمة:

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(١) فهناك نتيجة دنيوية ونتيجة أخروية يشير إليها قوله ﷻ ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٢).

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^(٣) «قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً»^(٣) فهذا الإعراض عن ذكر الله في حياة الفرد، في حياة الأسرة، في حياة المجتمع الصغير، في حياة المجتمع الكبير يُعقب هذه النتيجة الواضحة من الآية الكريمة وهي الظمأ، الضيق، الاختناق.

(١) المصدر.

(٢) المصدر.

(٣) سورة طه: ١٢٤-١٢٥.

الحياة مهما كان فيها من نعمٍ مادية، ومهما استطاع الإنسان أن يزيد من درجة الإنتاج الاقتصادي، ومهما تقدمت الوسائل الأمنية، والوسائل السياسية، ووسائل الإنتاج بيده إلا أن كل ذلك لا يمكن أن ينقذه من حياة الخناق، وحياة الضيق، وحياة الاكتئاب، وحياة الاضطراب والقلق، وفقد الثقة، والانشطار الداخلي عند النفس مما يُقلقها ويفزعها ويجعلها تعيش المعاناة. لا ينقذ من هذا السوء الدنيوي، ولا ينقذ من سوء الآخرة إلا منهج واحد هو منهج الله الذي يقوم على ذكره، ويقود الحياة في اتجاهه ﷻ.

هذا جزاء دنيوي؛ وعن الآخرة:

﴿... وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١) «قَالَ رَبُّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا» قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١﴾ فلا تدخل اليوم في رحمة الله، وهو يوم الفزع الأكبر، يوم لا سند، ولا معتمد في يقين الناس إلا الله. في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا سند ولا معتمد إلا الله، إلا أن النفوس تؤمن بهذا تمام الإيمان وتتيقنه في يوم الآخرة حين ينكشف الغطاء، وتسقط كل الأصنام، وتذهب كل الأوهام، وتنحسر كل الأخيلة، ويبدو كل شيء عملاق كان يعبدته الناس قزما بل لا شيء على الإطلاق، ويسفر في كل نفس أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.



في ذلك اليوم يأتي الناسي لآيات الله في الدنيا الخطاب: ﴿... وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾. لا ننس الله، لا ننس الآخرة. اللهم لا تنسناذكرك، ولا تصرف وجوهنا عن وجهك الكريم، ولا تصرف وجهك الكريم عنا.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١). كان عملهم عمل الناسي لله، الناسي لنعمة، الناسي لعظمته، الناسي لحقه، الناسي لقدرته، الناسي لجبروته وقهره، الناسي لجماله وجلاله وكماله.

﴿.. رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا..﴾^(٢) هنا مؤاخذه على هذا النسيان، مؤاخذه دنيوية، ومؤاخذه أخروية، والعبد الذي يفيق على خطئه، ويلتفت إلى تقصيره يُنادي: ﴿.. رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا..﴾.

(١) سورة طه: ١٢٤-١٢٦.

(٢) سورة السجدة: ١٤.

(٣) سورة البقرة: ٢٨٦.

نتيجة أخرى:

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ
 «وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ»
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ
 الْقَرِينُ﴾^(١) من يعمى ويلهو وينسى ذكر الرحمن يكون الفريسة
 السهلة للشيطان وجند الشيطان، يستولي عليه ضلال مغطّ مظلم
 كموج فوقه موج من الظلمات لا يبغي له بصيص نور، ولا يهتدي
 معه إلى حق.

النفس تقع في فخ الشيطان، في زنزانة الشيطان حين تنسى الله ﷻ،
 والشيطان له جنده، وله عمّاله، وهذه النفس تكون صيدا سهلا لجند
 الشيطان وعمّال الشيطان.

هذا وللذكر نتائجه،

(١) سورة الزخرف: ٣٦-٣٨.



(١)

ب. [من نتائج] الذكر.

﴿.. الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم لذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾^(٢) وقلبٌ مطمئنٌ صاحبه مستريح، وإذا اضطرب القلب وأصابه القلق فزعت حياة صاحبه كلها. والذين تطمئن قلوبهم لا تطمئن في حال رخاء دون حال شدة، ولا في حال غنى دون حال فقر.

الذين يملأ قلوبهم ذكر الله، فتنال من ذكر الله كامل اطمئنانها تجدها مطمئنة في كل حال، فلا يأتي ظرف ولا حال على تلك القلوب تفزع فيه، وتضطرب وتفقد لذة وجودها وحياتها الممتدة. لماذا؟!!

القلب وصاحبه ضعيفٌ يبحث عن قوي، القلب وصاحبه فقيرٌ يبحث عن غني، القلب وصاحبه فانٍ يبحث عن دائم، القلب وصاحبه متضععٌ واهٍ يبحث عن ركنٍ شديد، وليس من بعد الله

(١) خطبة الجمعة (١٥٧) ١٥ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ - ٤ يونيو ٢٠٠٤م

(٢) سورة الرعد: ٢٨.

قويٌ ولا غنيٌ ولا دائمٌ. فلماذا لا يطمئن قلبٌ انشدَ إلى الله وكان له
وصالٌ مع ذكر الله دائمٌ؟!

والذين يذكرون الله يملكون وعياً، ويملكون رؤيةً وعرفاناً، يذكرون
الله عظيمًا، يذكرون الله لا فاعلية بدون غيره في الكون، يذكرون الله
مالكاً لكل ذرة من ذرات الكون، يذكرون الله لا غالب له، يذكرون
الله على أن كلُّ شيء مغلوبٌ له.

عن أمير المؤمنين (ع): «الذكرُ يشرحُ الصدرَ»^(١). ساعة اللهو بعد الغمِّ
ليست متنفساً، المتنفس الحقيقي، الفرج، السعة في ساعة الذكر. إذا ألمَّ
من أزمات الحياة ما ألمَّ، واشتدَّت علينا منها، فلا لجأ لنا لأن نخرج
من

الكرب وغمٍّ وهمٍّ - لو وعينا - إلا أن نذكر الله. وهذه كلمة عن إمامٍ
معصومٍ حكيمٍ وهو عليٌّ عليه السلام.

يموت الحبيب، يمرض الولد، تكثر المشاكل، يشتد المرض، ولا تلجأ
لشيء يكشف عنك كربك من صديقٍ ولا حبيبٍ كالله ﷻ، بل لا
دافع، ولا مانع، ولا رافع إلا هو، والصدر لا يضيق مع ذكر الله، وما
ضاق صدر إلا وانشرح بذكره.

(١) غرر الحكم و درر الكلم، الآمدي، ص ٤٨.



وعن الإمام علي عليه السلام: «مداومة الذكر قوت الأرواح ومفتاح الصلاة»^(١) بدنك يجوع وروحك تجوع. روحك المتطلعة إلى الحق، المتطلعة إلى الهدى، المتشوفة إلى القوة، روحك وهي وعي، روحك وهي يقظة،
روحك شعور، أما البدن في نفسه فموات بلا شعور ولا إدراك. نعم أنت في روحك شعور، أنت في روحك إدراك، أنت في روحك وعي، أنت في روحك تطلعات بعيدة، أنت في روحك تشوف للحق والحقيقة.

ما جوع الروح؟

جوع الروح أن تفقد الحقيقة، أن تفقد اللبأ، أن تفقد الركن الشديد، أن تفقد المدد الدائم، أن تفقد الفيض المطر المستمر، وكل ذلك تجده حين تذكر الله. فهي جائعة، هي سغبة، هي ظمأ حتى تذكر الله فينطفأ الظمأ، وتجد الشبع، إلا أنه شبع يغري بطلب المزيد، ويدفع لتطلع أكثر في لذة وفي سرور.

(١) في ماوقفنا عليه من مصادر «مفتاح الصلاة». غرر الحكم ودرر

والذكر يصحّ أن يكون مفتاح الصلاة؛ لأن الداخل للصلاة بلا ذكرٍ لله ليس له إقبالٌ على الله، وصلاته هي صلاة الأموات والجماد. صلاة الأحياء صلاة امرءٍ أقبل عليها ذاكراً لربه، لعظمته، لجلاله، لجماله، لنعمائه، لكبريائه، لجبروته، لكماله. وإلا فكيف سيتأدّب؟! وكيف سيقنّت؟! وأي معنى لركوعه وسجوده؟! وما هو المضمون الروحي الذي يستقيه من صلاته وقلبه ليس فيه ذكرٌ لله؟!

والصلاة الحقيقية هي صلاة تعطي من كنوزها لصاحبها، والصلاة كلها كنوز، والصلاة كلها غنى، والصلاة كلها ثروة. صلاتنا ما لم تبنا، وتصنعنا أقوياء أظهاراً ليست بصلاة، ولا نكون بها من المصلّين حقاً وصدقاً.

عن الإمام علي (ع): « فِي الدِّكْرِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ »^(١) ويوميّات السوق، ويوميّات الثروة، ويوميّات الدنيا، ويوميّات زخارفها، وهذا التراكم الكبير في كلّ يوم من انعكاسات الدنيا وغرورها على النفس والقلب يُميت. فالقلب في كلّ محطة صلاة يتزود زاد حياة، وينبعث من جديد، والقلب إذا كان يتزود من الصلاة خمس مرات، فإن له في

(١) غرر الحكم و درر الكلم، الآمدي، ص ٤٧٦.



الذكر الدائم زاداً دائماً، وحياةً مستمرة، وانبعاثاً متجدداً، ونمواً مطرداً.

وحياة القلب لها مظاهر؛ أن أشعر بعظمة الله، أكبر من عظمة أي شيء، أن أتحرك على خط الله. أكون أفعالنا وردود أفعالنا دائماً منطلقة من خشية الله وهيبته وتَعْظِيم الله؟! قلوبنا تتعالى على مشكلات الحياة بما تجده من زاد الوصال بالله؟ القلب من هذا النوع قلبٌ ذاكِر، والقلب من غير هذا النوع قلبٌ غير ذاكِر.

القلب الذي يُكَبِّرُ الصَّغِيرَ، وينظر إلى الكبير صغيراً، القلب الذي ينصرف إلى شعاعٍ باهت، وكل خلق الله وإن عظم إنما هي إشعاعاتٌ على تفاوتها بالقياس إلى الله باهتةٌ قلبٌ غير ذاكِر. حيث يكبر الباهت على المضيء في القلب فهو قلبٌ مريض، وحيث يعمى القلب عن الله، عن جماله، جلاله، قدرته، فاعليته، إرادته، فهو قلب ميت. والقلب الذي يذوب لخسارة مالية، قلب منصرفٌ عن الله ميت، ولو كان ذاكراً لله لوجد في الله عوضاً عن كل خسارة.

«مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَحْيَا اللَّهُ قَلْبَهُ وَنَوَّرَ عَقْلَهُ وَلَبَّهٗ» ^(١) تذكر الله سبحانه، يُحيي قلبك، يُنور عقلك، ولبك، يجعلك الله واعياً، بصيراً. قلبك حيٌّ شاعرٌ دفاق. الشعور بعظمة الله، والشعور بالسعادة من خلال الشعور بالصلة بالله، إنها فاعليةٌ مفاضةٌ من الله في طول ذكره.

«ذِكْرُ اللَّهِ قُوَّةٌ تُنْفُسُ وَمُجَالَسَةُ الْمَحْبُوبِ» ^(٢) أنت إذا جلست إلى محبوبك من أهل الدنيا أنست برؤيته، وماذا تريد من حضور محبوبك، وحضورك عنده؟! أنسك برؤيته، تلذذك بكلماته، ما يعكسه هذا المجلس على قلبك من طمأنينة، من ارتياح. السعادة كل السعادة، الطمأنينة كل الطمأنينة، الشعور بالقوة، الشعور بالمنعة، الشعور بالعزة، الشعور بالكرامة، الشعور بالحماية، الشعور بالامتداد، الشعور بالغنى وعلى أتمه وبأعلى درجةٍ من درجاته يكون من فيض الله ﷻ على عبده عند ذكره.

إنك بذكرك لله سبحانه تجلس إلى محبوبك الذي تجد فيه كل مبتغاك من عزةٍ وكرامةٍ ومنعةٍ وقوةٍ وأنسٍ وحمايةٍ، وكل ما تشتهي النفس المستوية المتعلقة بالحق. وأنت في مجلسك لله لا تشتهي باطلاً، ولا

(١) غرر الحكم و درر الكلم، الآمدي، ص ٦٤٤.

(٢) غرر الحكم و درر الكلم، الآمدي، ص ٣٦٩.



تشتهي سوءاً، ولا تشتهي عدوانية. إنما المجالسون لله يشتهون من موائد الله، وليس من موائد الله إلا الخير والحق.

«الذِّكْرُ جَلَاءُ الْبَصَائِرِ»^(١) لماذا لا نستوعب الدين؟! لماذا لا يلامس الدين أفئدتنا؟! لماذا لا يصوغ لنا الدين ذواتنا؟! لماذا لا نأنس بالدين ونشعر بلذته؟! لماذا يبعد عنا الله عز وجل في الفهم، وفي الوجدان؟! ذلك لأن البصيرة علاها ما علاها من غبار ومن ضلال ومن قذارات، ومن أراد أن يجلو مرآة قلبه، ليجد الله دائماً معه، وليشعر بلذة مجالسة الله عز وجل، فليذكر الله، وعندئذ ستصح بصيرته، سينفذ بصره، سترتفع كل الحواجز والستور، وهناك تنور السريرة.

«الذِّكْرُ جَلَاءُ الْبَصَائِرِ وَنُورُ السَّرَائِرِ»^(٢) إن الله سبحانه جعل الذكر جلاءاً للقلوب فكيف يجعل الذكر القلوب، وماذا يحصل للقلوب بجلاء الذكر لها؟

(١) غرر الحكم و درر الكلم، الآمدي، ص ٧٤.

(٢) المصدر.

تقول الكلمة عن أمير المؤمنين (ع):

« تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ »^(١) ، فهناك قلوبٌ لا تسمع. هي قلوب الأنعام، تسمع أصواتاً لكن لا تهضم معانٍ، لا تتمثل القيم، لا تنفعل بالحقيقة، لا تهتدي بالمضمون، هذه قلوب بشرٍ تصم، ويصيبها الصمم من وقرة الباطل. والغناء وقرة، واللهو وقرة، ومجالسة أهل الباطل وقرةٌ تمنع أذن القلب أن تسمع.

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي، (صبحي الصالح)، ص ٣٤٢.



«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جَلَاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقَرَةِ وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ» (١)، ونحن على درجاتٍ من رؤية العين الحسية، وعلى درجاتٍ من رؤية عين القلب، على درجاتٍ من السمع، وعلى درجاتٍ من البصر الماديين، وعلى درجاتٍ من السمع والبصر القلبيين، ومن أراد أن يعالج قلبه، لتنجلي سحبه، وترتفع وقرته، وتنتهي عشوته وعماه، فليذكر الله.

ويقول عليه السلام: «وَتَتَّقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ» (٢) القلوب تنقاد بجلاء الذكر لها للحق معانديتها ومكابرتها له حيث إنها صارت ترى نوره، وتعشق بعد عافيتها جماله.

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي، (صبحي الصالح)، ص ٣٤٢.

(٢) المصدر.

(١)

«ذكرُ الله شفاءُ القلوب». ^(٢) تمرض النفس والقلب بالعمى والصمم والعناد والمكابرة للحق، وإهمال الشكر لله، وتطاول الشعور بالغرور عليه ﷺ، يمرض القلب بحيث لا يعرف حقاً من باطل، أو يعرف الحق فلا يتبعه، ويعرف الباطل فيأخذ به.

لو التفتنا فإن مرض القلب هو مرضٌ أهمُّ ما فينا، وما به معاننا، وما ترتبط به سعادتنا وشقاؤنا، أترى أن مرض القلب كمرض اليد؟! أترى أنه لو شلَّ القلب كما تُشلُّ اليد؟! أين شلُّ يدٍ قد تنفق كلَّ ما في يدك من أجل أن تخرج منه، من شلَّ قلب لا تعي بعده شيئاً أبداً؟!

هذا المرض له دواء، ودواؤه ذكر الله ﷻ. القلب يقوى، القلب يستنير، القلب يهتدي، القلب يشف، القلب يرف، القلب يقبل الحق،

(١) خطبة الجمعة (١٥٨) ٢٢ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ - ١١ يونيو ٢٠٠٤م

(٢) عن رسول الله ﷺ . نهج الفصاحة، پاينده، ابو القاسم، ص ٤٩٣.



يخرج من عناده ومكابرته لما تبين أنه حق كل ذلك بذكر الله ﷻ،
ذلك لأن ذكر الله ذكر الجمال، وذكر الكمال، وذكر الأسماء الحسنى.

«عليكم بذكر الله فإنه شفاء وإياكم و ذكر الناس فإنه داء»^(١) لا تستغنِ بذكر فلان عن ذكر الله، وبذكر غنى فلان عن ذكر غنى الله، ولا تقف عند قوة فلان عن قوة الله، ولا يربك تهديد فلان بحيث يصرفك عن وعيد الله. ذكرك الله ﷻ ذكر لأقوى قوي، وأغنى غني، ومن هو على كل شيء قدير، ومن لا يظلم أحداً، ولا يضيع عنده عمل صالح، ذكر من يكفيك بحيث لا يكفيك كفايته أحد، ومن يغنيك غنى لا يغنيك مثله أحد، ومن ينجيك نجاة لا يستطيعها أحد، ومن يربك ذكره تربية تعجز عنها كل الدنيا، وحتى لو ذكرت الأنبياء والملائكة ذكراً غير موصول بذكر الله لا يربك ذلك كما يربك ذكره ﷻ.

« إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يُؤْنِسُكَ بِذِكْرِهِ فَقَدْ أَحَبَّكَ ».^(٢)

و « إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُؤْنِسُكَ بِخَلْقِهِ وَ يُوحِشُكَ مِنْ ذِكْرِهِ فَقَدْ أَبْغَضَكَ ».^(٣)

في الصورة الأولى نفسك مستيقظة، مقاييسها صحيحة، رؤيتها واضحة، تقديرها دقيق، مهتدية، ذوقها سليم، غير مغشوشة. في

(١) إرشاد القلوب إلى الصواب، الديلمي، ج ١، ص ١١٧.

(٢) غرر الحكم و درر الكلم، الآمدي، ص ٢٨٤.



الصورة الثانية - صورة أن نأنس بالخلق ونستوحش من ذكر الله -
، النفسُ ساقطة، عمياء، صماء، مقلوبة، منكوسة، طينية، قصيرة
النظر إن لم تكن قد عميت بالكامل، بل هو العمى الكامل حقاً.
النفس في الصورة الثانية اشتت القبيح عن الجميل، ووقفت عند
النقص عن الكمال.

في الكلمة الأخرى:

« إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ
خَسَّ وَ إِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبُهُ فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ ».^(٢)

خطم الحيوان: مقدّم فمه وأنفه^(٣) ، فيصورُ الشيطانُ هنا وكأن له فماً
وأنفاً، هذا الفم والأنف يضعه لصيقاً بقلب الإنسان لا يفصله بينه
وبين قلب الإنسان فاصلٌ إلا من قدرة الله ﷻ، فإذا ذكر هذا العبد

(١) غرر الحكم و درر الكلم، الآمدي، ص ٨١٧.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي، ج ٦٠، ص ١٩٤.

(٣) "الْخَطْمُ: خَطْمُ الدَّابَّةِ، وَهُوَ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ الْخَطَامُ مِنْ أَنْفِ الْبَعِيرِ. ثُمَّ كَثُرَ ذَلِكَ
حَتَّى قِيلَ: خَطْمُ السَّبْعِ وَ خَطْمُ الْفَرَسِ؛ وَ سُمِّيَتْ الْأَنْوُفُ الْمَخَاطِمُ، الْوَاحِدُ
مَخْطَمٌ؛ يُقَالُ: ضَرَبَهُ عَلَى خَطْمِهِ وَ مَخْطَمِهِ، إِذَا ضَرَبَهُ عَلَى أَنْفِهِ." جمهرة
اللغة، ج ١، ص ٦١٠.

الله ﷻ خنس الشيطان، اختفى اندحاراً^(١) حيث جاء ما يطرده، لأنه بالذكر يصيبه اليأس من استجابة العبد له فكأنه يفقد موضوع وظيفته في هذه اللحظة، يفقد الأمل تماماً في أن يؤثر على هذا الإنسان، فماذا يفعل؟ يفعل أن يخنس، أن يختفي، أن يندحر.

وإذا نسي الله من قلب هذا الإنسان التقمه الشيطان، وقلب يلتقمه الشيطان ماذا يفعل به؟ الشيطان يلتقمه التقمماً معنوياً، يغمره في الظلمة، لا يبقي منه قدرة على الاستضاءة والاستنارة، يستبد به ليجعله قلب حيوان، قلباً كفوراً، قلباً جحوداً، قلباً مظلماً. فذلك الوسواس الخناس، وأنت تقول:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (٢) مَلِكِ النَّاسِ (٣) إِلَهِ النَّاسِ (٤) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٥﴾

أنت تستعيز من وظيفة الوسوسة، وتريد أن يخنس الشيطان. فأنت إما أن تعطي الشيطان فرصة الوسوسة التي تستبد بالقلب، وإما أن تجعله خناساً مدحوراً مطروداً، وأنت تستطيع الثانية بذكر الله ﷻ.

(١) "الانقباض والاستخفاء." كتاب العين، ج ٤، ص ١٩٩.

(٢) سورة الناس: ١-٤.



«أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ وَهُوَ أَمَانٌ مِنَ النِّفَاقِ وَبَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَتَذَكِيرٌ لِّصَاحِبِهِ عِنْدَ كُلِّ خَيْرٍ يَقْسِمُهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ وَلَهُ دَوِيٌّ تَحْتَ الْعَرْشِ» ^(١) ذَكَرَكَ اللَّهُ ﷻ يَكُونُ لَهُ دَوِيٌّ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَنْتَ مُقَدَّمٌ، وَأَنْتَ رَفِيعُ الشَّانِ، وَأَنْتَ صَاحِبُ صَوْتٍ فِي مَمْلَكَةِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنْتَ صَاحِبُ مَوْقِعٍ مِنْ مَوَاقِعِ النَّاجِينَ الْفَائِزِينَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ.

« مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ أَحَبَّهُ اللَّهُ » ^(٢) وماذا يبقى عليك من خيرٍ بعد أن يحبَّكَ الله؟ وماذا ينقصك بعد أن أحبك الله؟ وماذا يكون لك من خيرٍ بعد أن تفقد حبَّ الله ﷻ؟ يتملِّق أحدنا لضعيف من ضعفاء الخلق لينال رضاه لمسألة صغيرة جداً. ما أعقل وما أحكم من كان كلَّ ملقه لله ﷻ، وكلَّ تقربه إليه.

"صانع وجهها واحداً يفنك عن بقية الوجوه" ^(٣) المصانعة في هذا الاستعمال بمعنى الاسترضاء، وهل هناك من يصانع المصانعة الحقيقية النابعة من القلب، والتي تقوم على الخضوع، وتقوم على الاستسلام،

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام . تحف العقول، الحراني، ص ١٤٩.

(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام . الزهد، الأهوازي، ص ٥٥.

(٣) في مجموعة ورام، ج ٢، ص ١١٣. عن أويس القرني "صانع وجهاً واحداً يكفك الوجوه كلها".

وتكون بما يليق فتغني مصانعه عن كل أحد غير المصانعة لله؟! لن
تجد.

قال الله سبحانه:

«قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : إِذَا عَلِمْتُ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى عَبْدِي الْأَشْتِغَالُ
بِي نَقَلْتُ شَهْوَتَهُ فِي مَسْأَلَتِي وَمُنَاجَاتِي، فَإِذَا كَانَ عَبْدِي كَذَلِكَ
فَأَرَادَ أَنْ يَسْهُو حُلَّتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَسْهُو. أُولَئِكَ أُولِيَائِي حَقًّا أُولَئِكَ
الْأَبْطَالُ حَقًّا»^(١)

أبطال لأنهم حققوا النصر في أكثر الساحات تحدياً، وفي أدوم
الساحات صراعاً، وفي أشد الصراعات حرباً، هم الأبطال الحقيقيون،
البطولة ليس أن تصرع غيرك وأن تكون مهزوماً لداخلك. في الغلبة
الأولى قد لا تحتاج إلا إلى قوة عضلاتٍ مع شيء يسيرٍ من الإرادة،
وفي الساحة الثانية تحتاج إلى إرادة مقاومة مستمرة، قوية فولاذية،
وتحتاج إلى نباهةٍ وبقظَةٍ دائمة، ومواصلةٍ كفاح، وإلى فكرٍ وعلمٍ،
وخبرةٍ وحضورٍ مستمر، وإرادةٍ طاغية. حتى تنتصر في معركة
الداخل تحتاج إلى كل ذلك.

(١) عن الرسول ﷺ. التحصين في صفات العارفين، الحلبي، ابن فهد، ص ٢٦.



هناك، بطولة خمس دقائق يمكن أن تحقق لك نصراً، في معركة الخارج لو كانت لك بطولة خمس دقائق يمكن أن تحقق لك نصراً ساحقاً، أما في معركة الداخل وهي معركة العمر، معركة الليل والنهار، معركة الإصرار والإعلان فأنت تحتاج إلى أن تكون قوياً في كل لحظاتك، وأن تكون منتبهاً في كل آناتك فأين المعركة الأولى من المعركة الثانية؟!

وتريد أن يكون الله وليك بحيث لا يدعك لشهواتك ونزواتك وضعفك وتأثيرات الشيطان والهوى والنفس والخارج؟! اذكر الله سبحانه، وجهاد النفس بأن تنشغل بهذا الذكر ما استطعت وتنقل شهوتك من الدنيا ومن كل ما فيها إلى ذكر الله، والاشتغال بالثناء عليه ﷺ، بهذا تكون القوي بعناية الله، ورعاية الله "إذا كان الله معي فمن يستطيع أن يكون ضدي" كما هي كلمة أحدهم.

ليس عليك إلا أن تجاهد لنقل الشهوة والرغبة من الأمور التافهة، والاتجاه بكلك إلى المثل الأعلى، ليتم استغناؤك بالعظيم عن كل من دونه. ماذا يطلب منك في هذه الكلمة؟ يطلب منك أن تسعى للاستغناء بالعظيم عن الحقير، بالغني عن الفقير، بالقوي عن الضعيف، بالروؤف الرحيم عن المراوغين، عن المخاتلين، عن

المغالطين، عن المستغفلين والمستغلين. وأنت بهذا تريح العمر، تريح الحياة، تريح الدنيا، تريح الآخرة، تريح عناية الله وحراسته وكفايته.

الذكر والفكر:

إنه لا ذكر إلا بفكر، بتأمل، بتدبر في البداية في النهاية، في الخلق، في التدبير، في محدودية المخلوقين، عجزهم، مرضهم، موتهم، غناهم العابر، فقرهم الدائي، تغير إرادتهم، تقلبهم بين هم وغم، وفرح وانسراح، وحزن وفرح، ورضا وغضب، لا يملكون من أنفسهم مشاعرهم، وأحاسيسهم، وخواطرهم، وتقلبات أحوال داخلهم.

محكوميتهم في الخارج، في الداخل، في كل صغيرة، في كل كبيرة. وأنت تفكر لا تعرف كيف تفكر، لا تملك قوانين تفكيرك، من من الناس قد وضع قوانين تفكيره؟! ومن من الناس يملك لحظة مسألة تفكيره؟! ومن من الناس يدري ماذا سيأتي عليه بعد لحظة من خاطرة؟! لا أحد، إلا بإذن الله.

والفكر الذي يولد الذكر هو فكر يتجاوز سلسلة الظواهر الحسية إلى ما وراءها من قدرة وعلم وإرادة ووجود وحياة ولطف ورحمة



تحرّك هذه الظواهر كلها، وتنظمها، وتضبط مسارها، وتسلك بها إلى غاياتها ونهاياتها، وهو الفكر الذي يقرأ من وراء شبكة القوانين الكونية التي يكتشفها، والإحكام والدقة والتكامل والاتساق على طريق الغاية الواحدة لمجموعها ما يؤكد وحدة التحكم والضبط والتوجيه والتدبير لهذا الكون بكل ما فيه من شيء مخلوق، ويقرأ من محدودية كل المخلوقين وحدوثهم أزلية الخالق وعدم محدوديته.

ولتكون المفكر والذاكر لا تسمح لأحداث الحياة أن تستنزفك. الحدث السياسي الكبير، الحدث الاجتماعي الهائل، كل ما تعجّ به الحياة من وقائع وأحداث لا تعطها نفسك، لا تستنزف منك نفسك وتفكيرك وتشدك إليها بحيث تنسيك الله.

نعم لتكون المفكر والذاكر لا تسمح لأحداث الحياة أن تستنزفك، ولصراعاتها أن تنتهيك، ولزخارفها أن تلهيك، ولا تستغرق في لذائذها فتنسى نفسك وربك ومستقبلك ومسؤوليتك.

والحمد لله رب العالمين

مصادر التحقيق :

مستخرجة من برامج شركة نور.

- إرشاد القلوب إلى الصواب، الديلمي، حسن بن محمد، انتشارات الشريف الرضي - قم، الطبعة الأولى، ١٤١٢ق.
- بحار الأنوار (ط - بيروت) - العلامة المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، دار حياء التراث العربي الطبعة الثانية ١٤٠٣ق.
- التحصين في صفات العارفين، ابن فهد الحلبي، أحمد بن محمد، - مدرسة الإمام المهدي (عج)، ايران ؛ قم، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ق.
- تحف العقول، ابن شعبه الحراني، الحسن بن علي، - جامعه مدرسى حوزة علميه قم، دفتر انتشارات اسلامي قم، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ / ١٣٦٣ق.
- تصنيف غرر الحكم و درر الكلم، التميمي الآمدي، عبد الواحد بن محمد، - مركز النشر التابع لمكتب الاعلام الاسلامي، ايران ؛ قم، الطبعة الأولى ١٣٦٦ش.
- جمهرة اللغة، ابن دريد، محمد بن حسن، - دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى.

- الخصال، ابن بابويه، محمد بن علي، - جامعه مدرسى حوزة علميه قم، دفتر انتشارات اسلامي قم، الطبعة الأولى، ١٣٦٢ ش.
- الزهد، الكوفي الأهوازي، الحسين بن سعيد، - المطبعة العلمية، قم، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ ق.
- عيون أخبار الرضا عليه السلام ابن بابويه، محمد بن علي، نشر صدوق - طهران، الطبعة الأولى، ١٣٧٨ ق.
- كتاب العين، الفراهيدي، الخليل بن أحمد، - مؤسسة انتشارات الهجره قم، الطبعة الثانية.
- كنز العمال، المتقي الهندي، عبر البحث الانترنتي.
- كنز الفوائد، الكراجكي، محمد بن علي، - دار الذخائر، ايران؛ قم، الطبعة الأولى، ١٤١٠ ق.
- نهج البلاغة، الشريف الرضي، محمد بن حسين، (صبحي صالح) - أسوة. قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤ ق.
- نهج الفصاحة، پاينده، ابو القاسم، دنيای دانش، طهران، الطبعة الرابعة، ١٣٨٢ ش.
- مجموعة ورام، ورام بن أبي فراس، مسعود بن عيسى، - مكتبة الفقيه، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٠ ق.